رواء
مجلة فكرية دورية

• ظاهرة التخوين والإسقاط .. المشكلة والعلاج
• التمذهُب: بين التعصُّب واللامذهبية
• صور (ناسا) وحوار العلم والإيمان
• وحدة الأمّة بين التوافق والتراحم

الفطرة في خطر!

العدد السادس عشر
محرم ١٤٤٤ هـ
آب/ أغسطس ٢٠٢٢

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

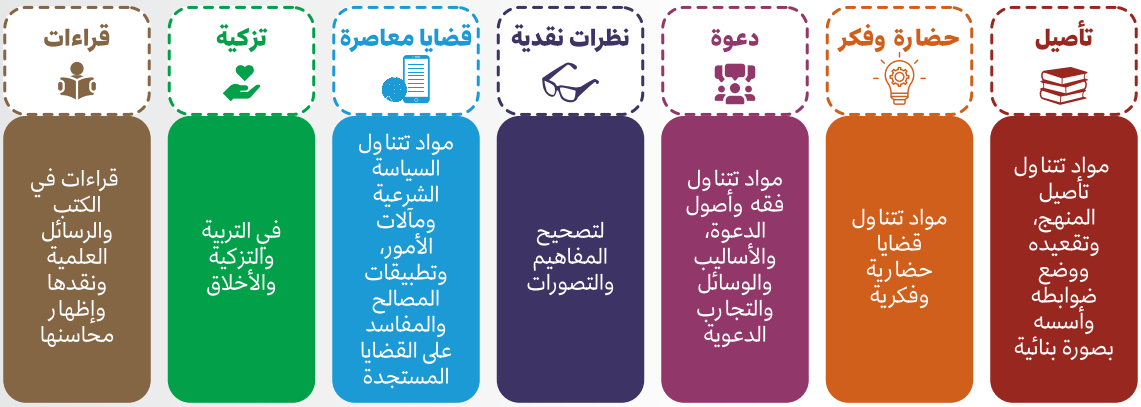

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

ظاهرة التخوين والإسقاط .. المشكلة والعلاج ٢

الفطرة في خطر! ٩
أ. جهاد بن عبد الوهاب خيتي

التمذهُب: بين التعصُّب واللامذهبية ١٦
أ. فايز الصلاح

صور (ناسا) وحوار العلم والإيمان ٢٤
م. فداء ياسر الجندي

توجيهات ربانية لسيّدات الطُّهر ٣١
د.عبد المعين الطلفاح

وحدة الأمّة بين التوافق والتراحم ٣٥
د. إبراهيم الحسون

كيف بلغ الأنصار مكانتهم الرفيعة؟ ٤٢
م. معاوية مروان الجندي

التفكير في الرؤية الإسلامية ٤٩
أ. فداء محمود الشوبكي

لماذا أُؤمِن؟! ٥٥
أ. محمّد ياسين نعسان

قراءة في كتاب:
«التطبيع استراتيجية الاختراق الصهيوني» لغسان حمدان ٦١
أ. محمود نادر المصري

بأقلام القراء ٧٠

أدومُهُ وإن قلَّ ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشن
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

ظاهرة التخوين والإسقاط.. المشكلة والعلاج

يُلاحِظ المتابع للكثير من القضايا العامة اليوم توسُّع ظاهرة التشكيك والتخوين، وكثرة النيل من مختلف الشخصيات التي تتصدر العمل في الشأن العام؛ سياسية كانت أو شرعية أو ثقافية أو تربوية، فبمجرد أن يصدر خطأ أو شبهة خطأ من إحدى الشخصيات، تنهال عليه سيوف التقريع والتخوين وقد يصل الأمر إلى الطعن في النيات والمقاصد القلبية.

والأنكى من ذلك أن تبدأ حملات التخوين والشتائم بمجرد تسنُّم شخصيةٍ ما لمنصب من المناصب، وقبل أن يظهر منه أي موقف أو خطأ، وكأن المنتقد المجرِّح قد نظر في الغيب فعلم الخيانة من سريرة هذا الشخص أو أنه سيخون الأمانة!

ولا يخفى على ذي لبٍّ ما لهذا السلوك من خطر على المجتمع ورجالاته، فمن ذا الذي يسلم من الخطأ؟ ومن ذا الذي يمكنه إرضاء جميع الناس؟

إن التخوين المقصود يختلف بلا شك عن النقد الموضوعي الهادف، والاحتساب الشرعي الواجب، فالتخوين يطعن في النيات ابتداء، ويفتري على الشخص بما لم يفعل، وبما ليس فيه، بينما يركز النقد على الخطأ عند وقوعه، والطريقة المناسبة لتقويمه، والسبل المثلى لتفاديه في المرات القادمة، والاحتساب يضيف إلى ذلك التخويف بالله والتذكير بالحساب في الآخرة.

التخوين يختلف عن النقد الموضوعي والاحتساب الشرعي، فهو يطعن في النيات ابتداء، ويفتري على الشخص بما لم يفعل وبما ليس فيه، بينما يركز النقد على الخطأ عند وقوعه، وسبل تفاديه، وطرق تقويمه، والاحتساب يضيف إلى ذلك التخويف بالله وبالآخرة

مكانة السمعة والعرض في الإسلام:

من أهمّ مقاصد الشريعة حفظ عرض المسلم وسمعته وشرفه من أن يُلطّخ أو يُمَسّ بغير حقّ، حتى لا تُنتهك خصوصيته، ولا يُعتدى عليه، ولا يُوصف بما ليس فيه، فكان الحفاظ على العرض من الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة بالمحافظة عليها وعدم إهدارها.

وعِرض الإنسان وسمعته هي من أهمّ ما يملكه الشخص في حياته الدنيا، ويستمرّ معه بعد موته؛ فيكون الثناء عليه والشهادة له بالخير أو الشرّ بما عُرف عنه واشتهر، فقد مُرَّ بجنازةٍ على رسولِ الله ﷺ فأثنوا عليها خيرًا فقال: (وجبت)، ثم مرت جنازة أخرى فذموها، فقال: (وجبت)، فلما سألوه عن قوله: (وجبت) للأولى والثانية، قال: (هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض)[١].

وقال ﷺ: (يُوشِكُ أن تعرفوا أهلَ الجنةِ من أهلِ النارِ)، قالوا: بم ذاك يا رسولَ اللهِ؟ قال: (بالثناءِ الحسنِ والثناءِ السيِّئِ، أنتم شهداءُ اللهِ بعضُكم على بعضٍ)[٢].

لذا ورد في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، قال ابن عباس: «يعني الثناء الحسن»[٣]، يعني ثناء الناس عليه، والترحم، وذكره بالخير دائمًا.

وسائل وإرشادات سَنَّها الإسلام لحماية الأعراض:

حرص الإسلام أشدّ الحرص على حماية عرض المسلم وسمعته، وسنَّ لذلك جملة من الإجراءات والتوجيهات، من أهمها:

- تحريم الإضرار بها أو مسّها دون حق، قال ﷺ في حجة الوداع: (أيها الناس... إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.. ألا بلغت.. اللهم فاشهد)[٤].
- الأمر بحفظ اللسان ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].
- النهي عن تتبع عورات الناس: (لا تغتابوا المسلمينَ، ولا تتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِم، فإنه مَن اتَّبَعَ عوراتِهم يتَّبِعِ اللهُ عورته، ومَن يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَه، يَفْضَحْهُ ولو في جوفِ بيتِه)[٥].
- تحريم الغيبة والنميمة، وجعل الافتراء على المسلم بما ليس فيه من أشدّ أنواع الغيبة، قالوا: «يا رسولَ اللهِ، ما الغِيبةُ؟» قال: (ذِكْرُك أخاك بما يَكْرَهُ)، قيل: «أفرأيْتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟» قال: (إن كان فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَه، وإن لم يكنْ فيه ما تقولُ فقد بهَتَّه)[٦].
- ترتيب أشد العقوبات على انتهاك عرض المسلم وقذفه بما هو بريء منه، وجعل ذلك من الكبائر المستحقة للعقاب الشديد في الدنيا، والعذاب في الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].
- توعُّد من يشيع الفاحشة بالعذاب الأليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].
- إيقاع العقوبة الشديدة بمن يتّهم مسلمًا بما ليس فيه: (ومن رمى مسلمًا بشيء يريد شَيْنَهُ به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال)[٧].

من علامات إيمان المرء لَجْمُ النفس عن الخوض في أعراض الناس، والتعفّف عنها امتثالاً لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد ورد هذا المعنى في كلام الصحابة والسلف وأهل العلم

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١).
(٣) تفسير ابن كثير (٢١٠/٥).
(٤) أخرجه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٦٧٩).
(٥) أخرجه الترمذي (٤٨٨٠).
(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).
(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٨٣)، يريد شَيْنَه: أي عَيبَه.

التحرز من عرض المسلم علامة الإيمان:

من علامات إيمان المرء لَجْمُ النفس عن الخوض في أعراض الناس، والتعفّف عنها امتثالاً لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد ورد هذا المعنى في كلام الصحابة والسلف وأهل العلم:

فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «لا يُعجبَنَّكم من الرجل طنطنته - يعني: صلاته - ولكن مَن أدَّى الأمانة، وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرجل»[١].

وعن عبدالله بن عون رحمه الله قال: «أحبُّ لكم معشر إخواني ثلاثًا: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكفَّ عن أعراض المسلمين»[٢].

وقال محمد بن سيرين رحمه الله: «كنا نُحَدَّثُ أن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس»[٣].

وقال بعضهم: «أدركنا السلف الصالح وهم لا يرون العبادة في الصوم والصلاة فحَسْب، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس»[٤].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفُّظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنى، والسرقة، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم... وغير ذلك، ويصعب عليه التحفُّظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يُشار إليه بالدِّين والزهد والعبادة، وهو يتكلَّم بالكلمات من سخط الله -لا يُلقي لها بالاً- ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعدَ مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورِّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يَفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول!»[٥].

أمّا الخوض في أعراض الناس بالغيبة والنميمة والانتقاص، ومحاولة إيجاد المبررات الشرعية والاجتماعية لهذا الخوض؛ فهو دليل على نقص الإيمان ومرض القلب، واستيلاء الشهوة، وسيطرة الشبهة، وربما كان وراء ذلك أسباب أخرى جديرة بالبحث والبيان.

من أسباب انتشار ظاهرة التخوين وجود حالة حقيقية من الفساد عانت منها الشعوب الإسلامية منذ عقود، ولم تكن تقبل في مؤسسات الدولة والمجتمع إلا من هو على شاكلتها في الفساد، وبسببها ترسّخ في عقول ونفوس الشعوب تعميم الوصف بالفساد وخيانة الأمانة

أسباب ظاهرة التخوين والإسقاط:

لسائل أن يقول: إن كانت الأدلة واضحة وصريحة على تحريم الطعن في الآخرين والاستطالة في أعراضهم، فلماذا نلحظ ظاهرة التخوين والمسارعة بالاتهام والسعي لإسقاط العديد من الشخصيات والمنظمات بأدنى شبهة ودون دليل؟ سواء في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، أم في واقع ثورتنا السورية بشكل خاص.

إنّ المتأمل في الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة يجدها ذات جذور وخلفيات متنوّعة، منها:

١. وجود حالة حقيقية من الفساد عانت منها الشعوب في البلاد الإسلامية منذ عقود، وفي مختلف مؤسسات الحكم، وتجلى هذا الفساد في سائر مناحي الحياة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والإعلامية، وغيرها، ومارستها مختلف شخصيات الأنظمة ورُتبها ابتداء من رأسها حتى أصغر فرد فيها؛ فاكتوت الشعوب بنارها وعاشت أسوأ مراحل التخلف في تاريخها، وتسلّطت عليها الشخصيات الفاسدة بشتى أنواع الفساد والإجرام، ولم تعد تقبل في مؤسسات الدولة والمجتمع إلا من هو على شاكلتها في هذا الفساد.

وبسبب المعاناة والمعايشة الطويلة لهذا الفساد، فقد ترسّخ في عقول ونفوس الشعوب تعميم الوصف بالفساد وخيانة الأمانة والاتهام بالعمالة أو السرقة لكلّ من يتولى مسؤولية أو مكانة في مؤسسة، أو برز في المجتمع، خاصة مع عدم وجود منهجية واضحة تُعرّف معنى الفساد وتحدد

(١) الزهد، لابن المبارك (٦٩٥).
(٢) حلية الأولياء (٤١/٣).
(٣) الصمت، لابن أبي الدنيا (١٣٨).
(٤) ذم الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا (٥٥).
(٥) الداء والدواء، ص (١٥٩).

سبل علاج ظاهرة التخوين والإسقاط

التوعية بخطر الظاهرة ونتائجها الكارثية	إحسان الظن بالآخرين وتجنب سوء الظن
علاج أدواء النفس وتحسين الأخلاق	عدم وضع النفس موضع التهمة
تجنب الحكم على الآخرين بالظن والشبهة	التوسط والاعتدال في الحكم على الرجال

معاييره، فأصبحت هذه الألفاظ صفات سائلة يتم إطلاقها جزافًا دون قيود[١].

٢. ومن الأسباب أيضًا: الحالة الأمنية الترهيبية التي عاشتها المجتمعات الإسلامية، حيث شجّعت الأنظمة الناس على الوقيعة ببعضهم من خلال نقل الأخبار والإبلاغ عن الآخرين وكتابة التقارير، وما نتج عن ذلك من سيطرة حال الخوف والشك في الآخر، إضافة إلى إفساد العلاقات الاجتماعية على كافّة الأصعدة، فقد أصبح المجتمع يعيش حالة من فقدان الثقة بين أفراده، وصار كل فرد ينظر للآخرين نظرة شك واتهام[٢].

٣. وقد نتج عمّا سبق أمر آخر في منتهى الخطورة، ألا وهو انتشار «الشخصية الشكّاكة» التي تسيء الظنّ بكلّ أحد، وتتبنى تفكيرًا غير منطقي يجعل من هذا الشخص مرتابًا شكّاكًا في الآخرين طيلة الوقت، ويفسر تصرفاتهم أسوأ تفسير لتتوافق مع تصوراته وافتراضاته المسبقة، مما يكسبه صفات الكراهية، والضغينة، والتي قد تتطور إلى الحسد والحقد، وقد تتجه إلى العنف ومحاولة الإيذاء ولو باللفظ. وقد تتطور هذه الشخصية إلى حدّ فقدان الثقة بالآخرين، وتبني التفسير التآمري لكلّ تصرف!

> **من أسباب هذه الظاهرة الحالة الأمنية الترهيبية التي عاشتها المجتمعات الإسلامية، حيث شجّعت الأنظمة الناس على الوقيعة ببعضهم من خلال نقل الأخبار والإبلاغ عن الآخرين وكتابة التقارير، وما نتج عن ذلك من سيطرة حال الخوف والشك في الآخر**

(١) ينظر: التقرير التحليلي «الإسقاط والتخوين عند السوريين؛ حالة عابرة أم ظاهرة؟ قراءة اجتماعية نفسية في الأسباب»، مركز الحوار السوري، منشور في موقع المركز بتاريخ ٣٠ مارس ٢٠٢٢م.

(٢) المرجع السابق.

٤. الحالة النفسية المندفعة بعد ثورات الربيع العربي، وما رافقها من جهود الأنظمة الاستخباراتية لإفشال الثورات والانقلاب عليها واختراقها بأنواع العملاء والمدسوسين من مدّعي الوطنية والتديّن والجهاد؛ فصار لدى بعض المجتمعات حساسية شديدة تجاه كلّ من لا يوافقها في مواقفها، لدرجة اتهامه بالخيانة والعمالة، ومواجهته بعنف وشدّة تماثل الخشية منه على الثورة ومنجزاتها. ومع حالات «الهياج» الجماهيري كثيرًا ما تضيع الحقيقة وسط الركام.

٥. وجود حالات فساد حقيقية وملموسة في أوساط شخصيات أو مؤسسات عاملة في المجتمع محسوبة على المعارضة أو الثورة، تستقوي بالمنصب لتحقيق أغراضها، وتستخدم موارد الشعب في ترفيه نفسها، ومع غياب المنهجية، ووجود النفسية المندفعة السابق ذكرهما؛ يصل الأمر إلى تعميم الحكم بالفساد والخيانة عند أدنى شبهة، أو لمجرد التحليل والتفسير!

٦. ساهم في تأجيج هذه الحالة: كثرة الأخبار وتنوّعها، وتناقلها دون تثبّت أو تروٍّ أو تمحيص، وما يرافق نقلها من اجتزاء يخفي جزءًا من الحقيقة، أو زيادة يكون مصدرها تحليل ناقل الخبر وتفسيره وفق رؤيته أو هواه؛ مما يخفي جزءًا من الحقيقة أو يشوهها؛ لتصبح تهمة خالصة جاهزة.

٧. ولا شكّ أنّ ضعف الإيمان، والاستهانة بالغيبة والنميمة، وعدم التورع عنها، يسهّل هذه الظاهرة، ويكسر الحواجز الدينية والأخلاقية التي يفترض أن تمنعها أو تحدّ منها أو تجعلها -على أقل تقدير- محل نقد الآخرين واستيائهم، لا ترحيبهم وتأييدهم.

من نتائج ظاهرة التخوين فقدان ثقة الناس ببعضهم وانتشار العداوات والتباغض، وتهيُّب الصادقين والمخلصين من التصدُّي للمسؤوليات العامة، فلا أحد يرغب في التعرُّض لسهام التخوين ورماح التجريح

علاج ظاهرة التخوين والإسقاط:

انتشار ظاهرة التخوين والإسقاط له أثر سيء ومدمر على المجتمع، وعلى الأفراد، يؤدّي إلى إفقاد ثقة الناس ببعضهم، وانتشار العداوات والتباغض، وتفكّك المجتمع. كما يؤدّي إلى تهيُّب الصادقين والمخلصين من التصدُّي للمسؤوليات العامة، فلا أحد يرغب في التعرُّض لسهام التخوين ورماح التجريح، وهذا بدوره له أضراره التي لا تخفى، ولذلك ينبغي علاج هذه الظاهرة والعمل على استئصالها، ومن أهمّ العلاجات ما يلي:

١. التوعية بأسباب هذه الظاهرة ومحاولة علاجها علاجًا جذريًا لا ظاهريًا، ولا سيما تلك الأسباب التي تعود إلى الحقبة السابقة، والتي ترسّخت في المجتمعات خلال عقود من الزمان.

٢. العلاج النفسي والروحي للخلل الحاصل في الشخصية والأخلاق، فمن صفات المسلم مراقبة نفسه وعلاج ما فيها من خلل وأخطاء، واستدراك نقصها، وتكميل أخلاقها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وقد قال الشاعر:

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شَبَّ على
حُبّ الرضـــاع وإن تَفْطِمْه يَنْفَطِـمِ

وجاهد النفس والشيطان واعصهما
وإن هـما مَحَّـضَاكَ النصح فاتَّـهِمِ

ومن هنا يبدأ التغيير الحقيقي والعلاج الأصلي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٣. تجنب الحكم على الآخرين بالظن والشبهة، والتمهّل قبل إطلاق الأحكام، والتثبت من صحة الأخبار المنقولة ودقتها، والعمل بالقاعدة النبوية في الاستفسار (ما حملك على ما صنعت؟).

٤. إحسان الظن بالآخرين وحمل كلامهم وتصرفاتهم على أحسن محمل، وخاصة من كان منهم معروفًا بالمكانة والسمعة الطيبة، وشهد له الناس وأهل الفضل بالخير، وزكوه، ولا يعني حسن الظن بترك الحيطة والحذر والتحرز، وخاصة عند ظهور بوادرها.

ويلحق به تجنب سوء الظن وتقديمه والبحث عن التفسيرات السلبية، وهذه حرمها الإسلام وشدد عليها صيانة للعرض والسمعة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فالإسلام يهدف إلى إقامة المجتمع على صفاء النفوس وتبادل الثقة، لا على الريب والشكوك والتهم والظنون، والأصل في الناس أنهم أبرياء، ووساوس الظن لا يصح أن تُعرِّض ساحة البريء للاتهام.

٥. عدم وضع النفس موضع التهمة، والعمل على توضيح ما يمكن أن يكون موضع تهمة، رحم الله امرأ جب المغيبة عن نفسه، فهذا نبي الله ﷺ يعتكف وتأتيه أم المؤمنين زوجه صفية رضي الله عنها تزوره، فمر صحابيان فأسرعا، فقال لهما: (على رسلكما إنها صفية بنت حيي)، فقالا: «سبحان الله يا رسول الله!» قال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا)، أو قال: (شيئًا)[١]. قال النووي عند هذا الحديث: «باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به».

٦. التوسط والاعتدال في الحكم على الرجال ونقد المخالف، واستخدام قواعد الإنصاف الشرعية المعتبرة في الحكم على الآخرين، والتي من أهمّها:

- أنّ الحكم على الناس يجب أن يكون بعلم وعدل، مع مراعاة تقوى الله والوَرَع، وتقديم حسن الظنّ بالمسلمين.
- أنّ الحكم لا يصحّ إلا بعد تحقق الشروط كالتثبّت، وانتفاء الموانع كالجهل والإكراه.
- عدم الحكم بمآلات الأفعال ولوازم الأقوال[٢].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥) واللفظ له.

(٢) من كتاب: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام، للدكتور محمد يسري إبراهيم.

من نتائج ظاهرة التخوين والإسقاط

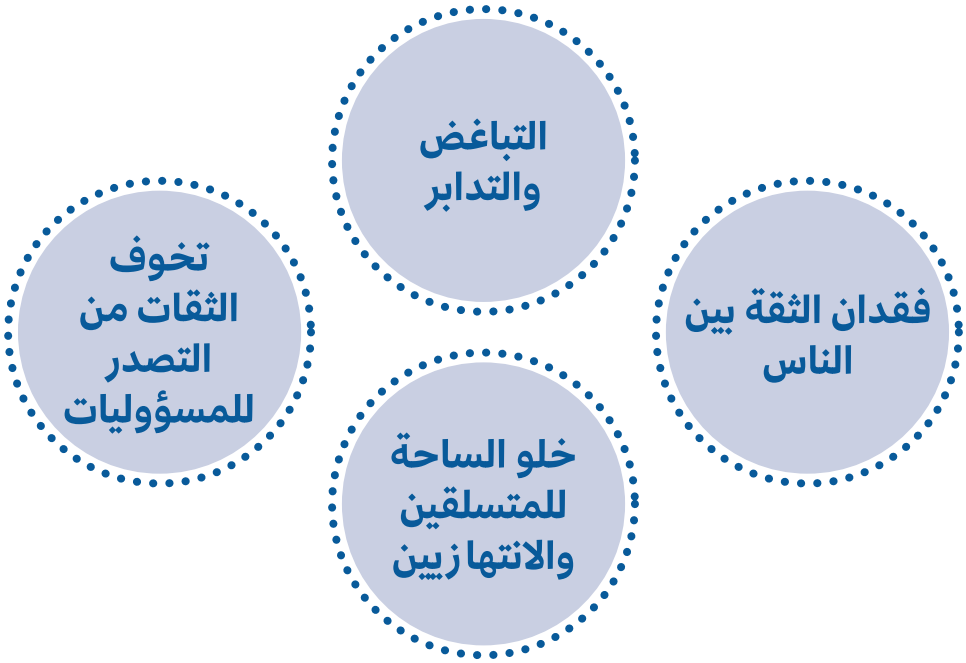

هذه ليست دعوةً لقبول ظلم الطغاة وفساد المتسلقين وخيانة العملاء، أو السير بين الناس بالغفلة والثقة بمن ليس أهلاً لذلك، لكنه تحذير من إطلاق التهم وإهدار أعراض الناس بالتجريح والبهتان، وإبقاء شيء من الثقة والتعقّل أمام من يتحمل المسؤوليات ويتصدى للمهمات الجسيمة

وفي الختام:

المرء مؤاخذٌ بما يقول وما يكتب، وربَّ كلمةٍ لا يلقي لها بالاً تكون سببًا في سفك دم مسلم، أو تسليط الناس عليه وهو بريء، وقد تورد صاحبها المهالك، والتجريح والاتهام الباطل يدخل في أبواب كثيرة من الشر بدءًا من سوء الظن، ومرورًا بالبهتان والافتراء والكذب، وانتهاء بنشر البغضاء والتدابر في المجتمع المسلم.

وهذه ليست دعوةً لقبول ظلم الطغاة وفساد المتسلقين وخيانة العملاء، أو السير بين الناس بالغفلة والدروشة والثقة بمن ليس أهلاً لذلك، لكنه تحذير من إطلاق التهم على عواهنها، وإهدار أعراض الناس وهتكها بالتجريح والبهتان، وإبقاء شيء من الثقة والتعقل أمام من يتحمل المسؤوليات ويتصدى للمهمات الجسيمة.

وإذا تحاشى الفضلاء والنبلاء من الناس تولي المسؤوليات العظيمة صيانة لأعراضهم من النهش والهرش، فمن الذي سيتصدر لها إلا المتسلِّقون والانتهازيون؟ وحينها سيصدُق علينا قول الشاعر:

فـينا مَعـاشِرُ لم يَبْنُوا لقـومِهمُ
وإنْ بَنى قومُهُمْ ما أَفْسَدوا عادُوا

لا يَرْشُدونَ ولن يَرْعَوا لِمُرْشِدِهمْ
فالغَيُّ منهُمْ مـعًا والجَهْلُ ميعادُ

والبـيتُ لا يُـبْتَنَى إلا لـهُ عَـمَـدٌ
ولا عِـمـادَ إذا لـمْ تُرْسَ أَوْتـادُ

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوضَى لا سَراةَ لَهُمْ
ولا سَراةَ إذا جُـهَّالُـهُـمْ سـادُوا

تُلْفَى الأمورُ بأهل الرُّشْدِ ما صَلَحَتْ
فـإِنْ تَـوَلَّوْا فبـالأَشْرارِ تَنْـقـادُ

الفطرة في خطر!

أ. جهاد بن عبد الوهاب خيتي (*)

يشغل الحديث عن حقوق الإنسان حيزًا كبيرًا من اهتمام الدول والمجتمعات على مستوى العالم، وتتشدّق الأمم المتحدة برعاية هذه الحقوق، في حين أنّها -في واقع الأمر- تسلب الإنسان أهمّ حقوقه وهو: العناية بالفطرة التي فطره الله عليها؛ فمواثيقها ومعاهداتها ومؤتمراتها تصبّ في حرف الفطرة عن وجهتها. وفي هذا المقال سيكون الحديث عن الفطرة ومفهومها، وأشكال انحرافها، والطريق للمحافظة عليها وحمايتها.

مفهوم الفطرة:

معنى الفطرة: أنّ الله خلق الإنسان خلقًا سويًّا سليمًا في أحسن تقويم، وغرس فيه التوجّه إلى خالقه واللجوء إليه، وجَبَله على الاستقامة وحبّ الفضائل وكراهية الرذائل، وميّزه بالعقل الذي به يعرف الحق من الباطل والضار من النافع.

وقد تعدّدت تعبيرات العلماء عن هذا المعنى، فمنهم من عرّفها بالحنيفية، للحديث القدسي: (وإنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ كُلَّهُم، وإنَّهُم أتَتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُم عن دِينِهِم، وحرَّمَت عليهِم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتهُم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنْزِل به سُلطانًا)[1].

ومنهم من قال: إنّها السلامةُ والاستقامة[2]، وهي معنى الحنيفية في الحديث السابق، ولا تضادّ بين القولين فالثاني يفسّر الأول ويوضّحه. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: (ما مِن مَولُودٍ إلا يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمَجِّسانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ)، ثُمّ يقول أبو هُريرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠] الآيَةَ[3].

قال أبو السعادات ابن الاثير رحمه الله: «ومعنى الحديث: أنّ المولود يولد على نوع من الجِبِلّة، وهي فطرة الله تعالى، وكونه متهيئًا لقبول الحقّ طبعًا

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) التمهيد لابن عبد البرّ (١٨/ ٦٨-٧١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

وطوعًا، لو خلّته شياطين الإنس والجن وما يختار لم يختَرْ غيرها. فَضَرَبَ لذلك الجمعاءَ والجدعاءَ مثلاً، يعني: أنّ البهيمة تُولد مجتمعة الخلق، سويّة الأطراف، سليمةً من الجدع، لولا تعرّض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة»[1].

معنى الفطرة أنّ الله خلق الإنسان خلقًا سويًّا سليمًا في أحسن تقويم، وجَبَله على الاستقامة، وميّزه بالعقل، وغرس فيه الفضائل كلّها. فهو يمتلك جميع الدوافع التي تجعله يسير في الطريق الصحيح في علاقته بربّه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بغيره من البشر والكائنات

فالإنسان يولد والفطرة توجّهه نحو غاية وجوده في هذه الحياة المتمثّلة في: عبادة الله الذي أوجده وكرّمه وأنعم عليه، وتوجهه نحو التصرّف كمخلوق مكرّم، قد سُخّرت له السماوات والأرض وما فيها من كائنات وموجودات، وتوجهه نحو عمارة الأرض التي يعيش عليها واسترعاه الله إياها. وبالتالي فهو -وفق هذه الفطرة- يمتلك جميع الدوافع التي تجعله يسير في الطريق الصحيح في علاقته بربّه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بغيره من البشر والكائنات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا قيل: إنّه وُلد على فطرة الإسلام أو خُلق حنيفًا ونحو ذلك فليس المراد به أنّه حين خرج من بطن أمّه يعلم هذا الدين ويريده، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن فطرته مُقتضية مُوجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبّته. فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبّته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت عن المُعارِض. وليس المراد مجرّد قبول الفطرة لذلك أكثر من غيره، كما أنّ كلّ مولود يولد فإنّه يولد على محبّة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه.

وهذا من قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢-٣]، فهو سبحانه خلق الحيوان مُهتديًا إلى طلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه، ثم هذا الحبّ والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته. ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يُفسد ما وُلد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة»[2].

وليس بين هذا، وبين قول الله عز وجل في الحديث القدسي: (يا عِبادِي كُلُّكُم ضالٌّ إلا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)[3] تعارضٌ، فإنّ المقصود به: الضلال الطارئ على الفطرة الأولى المغيّر لها، وقيل: المراد به حال الناس قبل بعثة الرسل حيث كانوا في جاهلية وعمى فهداهم الله تعالى، وقيل: المراد بالضلال: عدم معرفة الحقّ والإيمان على وجه التفصيل فبيّنه الله عن طريق الرسل عليهم السلام.

وليس بينه وبين قول النبي ﷺ: (إنَّ الغُلامَ الذي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ كافِرًا، ولَو عاشَ لَأَرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْيانًا وكُفْرًا)[4] تعارضٌ، فإنّ المقصود: أنّه سبق في علم الله تعالى أنّه سيضلّ ويَكون كافرًا، وليس معناه أنّه كان كافرًا في أصل خلقته.

شهدت البشرية منذ نشأتها صورًا متعدّدة لانتكاس الفطرة، كان أوّلها وأعظمها: ظهور الشرك في قوم نوح؛ فهو مفتاح كل انحراف لأنّه يعني التمرّد على شرع الله، تلا ذلك الانتكاس الأخلاقي الكبير بظهور الشذوذ في قوم لوط، وهي فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين

انحراف الفطرة:

الفطرة قد تنحرف وتنتكس وتتغيّر وتتشوه؛ فيخرج الإنسان عنها إلى ما يضادها. والسبب الأوّل في ذلك هو الشيطان الذي توعّد أن يُضلّ بني آدم ويَحرفهم عن الفطرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنْ يَدْعُونَ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٤٧/١).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٨٣/٨-٣٨٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦١).

مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢٠].

وقد شهدت البشرية منذ فجر تاريخها صورًا متعدّدة لانتكاس الفطرة، وكان ظهور الشرك في قوم نوح عليه السلام هو بداية الإعلان الحقيقي لهذا الانتكاس الذي أراده الشيطان، فالشرك يعني عدم الخضوع لله جل جلاله والتمرّد على شرعه؛ وبالتالي: الاستسلام الكامل لوسوسة الشيطان.

ثم أكمل الشيطان طريقَه في حَرف الفطرة من خلال إثارة الشهوات لدى الإنسان لدرجة الخروج بها عن الحالة الإنسانية، وعن التشريعات التي أنزلها الله لتهذيبها، قال تعالى واصفًا ومحذّرًا من مكائد الشيطان: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧-٢٨].

وبعد أن تملّك حبّ هذه الشهوات قلوب المستجيبين لإبليس؛ بدأ يخوّفهم من فقدها، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ويوقع بينهم التنافس عليها والتنازع لجمعها وتكثيرها؛ فانتكست الفطرة وهوت إلى دركات الظلم والبغي بغير الحق وما يتبعه من سفك الدماء وانتهاك الأعراض والاستيلاء على الأموال.

ومن أشدّ حالات انتكاس الفطرة في التاريخ القديم حالتان:

الأولى: ما كان من قوم لوط الذين كفروا بالله ورسله، وظهرت فيهم فاحشةٌ ما سبقهم بها أحد من العالمين، ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، وقد كانت من النتائج الحتمية للتلبّس بهذه الفاحشة انتكاسةٌ بشعة أخرى للفطرة والمتمثّلة بعدم التنزّه من النجاسات!! ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. وقد عاقبهم الله تعالى عقابًا بشعًا يتناسب مع جرمهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٤].

الثانية: ما كان عليه الإغريق والرومان - الذين كانوا على الشرك وعبادة آلهة متعدّدة - من الفواحش والشذوذ بجميع أشكاله وأنواعه، والذي تشهد به النقوش الجدارية والآثار التي خلّفوها، وكانت هذه الشذوذات محلّ نقاش بين فلاسفتهم، وبين حظرٍ وإباحةٍ بحسب توجّه أباطرتهم. وقد حلّ بأهل مدينتي (بومبي) و(هركولانيوم) -وهما تقعان ضمن الحدود الجغرافيا لدولة إيطاليا- عقابٌ إلهيٌّ شمل جميع سكّانهما بسبب شيوع هذه الفواحش فيهما؛ فأهلكهم الله بثوران بركان فيزوف الهائل عام ٧٩م الذي قضى عليهم جميعًا في لحظة واحدة[1]، وقد اكتشفت آثارهم التي تشهد على العذاب الذي حلّ بهم عام ١٧٣٨م بعد أن كانت مخفيّة تحت الرماد البركاني طيلة ستة عشر قرنًا من الزمان.

تنوّعت صور انتكاس الفطرة في العصر الحاضر ولاسيّما في الدول الغربية، حيث أصبح الإلحاد ظاهرة في كثير من المجتمعات، وغلب فيها العري والإباحية والفوضى الجنسية، ثم ظهرت ثقافة وشم الجسم وثقبه بالأقراط، وصولاً إلى ترويج الشذوذ الجنسي بجميع أشكاله

انحراف الفطرة المعاصر:

شهد انحراف الفطرة في هذا العصر نَقْلةً كبيرة لا سيّما في الدول غير الإسلامية، والغربية منها بشكل خاص. وكانت أولى مظاهر هذا الانتكاس تتمثّل في انتشار الإلحاد كظاهرة اجتاحت كثيرًا من دول العالم، ولم يكن انتشارها قاصرًا على الدول التي

(١) يذكر علماء الآثار أنّ أماكن وجود الجثث المتحجّرة يدلّ على أنّ العذاب حلّ بهم وهم في هيئاتهم وأوضاعهم وأماكنهم التي كانوا عليها قبل موتهم، وأنّ تحليل جثثهم أظهر عدم وجود أيّ علامة على تأهّبهم لحماية أنفسهم أو حتى للفرار! مما يدلّ على أنّ ما حصل لهم كان سريعًا جدًّا في غضون ثانية واحدة أو أقل.

تبنّت المذهب الشيوعي، بل شمل أيضًا المجتمعات التي تدين بالنصرانية واليهودية، وانتقل إلى المجتمعات الإسلامية ليسري بين أفرادها.

وثاني مظاهر انحراف الفطرة تمثّل في نشر ثقافة العري والإباحية والفوضى الجنسية؛ مما أدّى إلى «تطبيع الجنس»، واعتباره أمرًا فرديًّا يمكن ممارسته في أيّ وقت ومكان ومع أيٍّ كان! وهذا ما يفسّر عددًا من الظواهر المنتشرة بينهم كعدم الارتواء الجنسي، والرغبة العارمة في ممارسة الجنس في العلن دون إحساس بالحَرَج!

ثم ظهرت ثقافة وشم الجسم وثقبه بالأقراط (Body piercing)؛ في تجاوزٍ واضحٍ لمسألة التزيّن إلى التشويه! وتتعدّد الأسباب حول هذه الممارسات المنحرفة، فمنها ما يعود لأسباب دينية أو للانتماء لطائفة أو جماعة معيّنة، ومنها ما يكون بهدف زيادة المتعة الجنسية! أو للتعبير عن الذّات وإظهار التمرّد على المجتمع؛ لذا تنتشر بين الشباب بشكل أكبر، أو يكون نتيجة المرض النفسي والهوس بالشهرة.

وصولاً إلى ترويج الشذوذ الجنسي بكافّة أشكاله، بل والانتقال من تجريمه إلى التعاطف معه، إلى فرضه ثقافيًا وتجريم من ينتقده؛ وذلك لأسباب كثيرة سيأتي ذكر أهمّها.

وقد شهد هذا الانحراف عن الفطرة السليمة شيوعًا وانتشارًا نتيجة الانفتاح الفكري والثقافي بين المجتمعات، حيث أسهمت وسائل الإعلام في نقل الثقافات المنحرفة بالصوت والصورة وعلى نطاق واسع ولجميع طبقات المجتمع؛ مما أدّى إلى سرعة انتشار هذه الانحرافات والترويج لها باعتبارها مظهرًا ثقافيًا للشعوب؛ ومن ثَمَّ تقليدهم فيها؛ مما زاد في اتساع رقعة انتكاس الفطرة وتشوهها.

ظهور العَلمانية التي تؤسس الحياة بعيدًا عن وجود الإله والأديان، وظهور الحركة النسوية الراديكالية؛ يُعدّان من أهم أسباب انتشار الشذوذ في الغرب

أسباب انتشار الشذوذ في الغرب:

لظهور الشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية ووصوله إلى ما وصل إليه من الانتشار والتأييد والحماية أسبابٌ كثيرةٌ، يأتي في مقدّمتها سببان رئيسان:

- **الأول:** ظهور العَلمانية والمادّية وشيوع مبدأ اللذّة النفعي[1]، فالإنسان الغربي يعيش حياةً مادية هدفُها تحقيقُ اللذّة بأقصى سرعة دون أيّ حدودٍ أو قيودٍ أو مسؤولية؛ فهو يعيش لنفسه ولمتعته وفائدته ولذّته، وبالتالي فهو يريد إشباع شهواته الجنسية بأيسر الطرق وأبسطها؛ دون أن يدخل في علاقات ذات آثار اجتماعية[2]؛ لذا فهو يرفض مؤسسة الأسرة؛ وبالتالي: أصبح الشذوذ هو النتيجة الحتمية التي ستصل إليها نسبةٌ كبيرةٌ من أفراد المجتمع الذي تسود فيه هذه الثقافة وهذه المبادئ[3].
- **الثاني:** ظهور الحركة النسوية الراديكالية، التي بدأت بالمطالبة بحقوق المرأة، وانتهت بالثورة على الأنوثة[4]، واختراع مصطلح «الجندر» والذي يعني: إلغاء ثنائية الذكر والأنثى، وإحلال كائن افتراضي اسمه «النوع الاجتماعي» الذي يحدّد هو نفسه فقط هويته، ويقرّر ما إذا كان يريد أن يكون ذكرًا أو أنثى، وصولاً إلى تمحور المرأة حول ذاتها والدخول في صراع مع الرجل ومحاولة الاستغناء عنه. وكان من أهمّ جوانب هذا الاستغناء: الجانب الجنسي؛

(١) قال د.عبدالوهاب المسيري - رحمه الله- في حديثه عن العَلمانية الشاملة: «هي رؤية شاملة للواقع تحاول بكلّ صرامة تحييد علاقة الدين والقيم المطلقة والغيبيات بكلّ مجالات الحياة، ويتفرّع عن هذه الرؤية نظريات ترتكز على البعد المادي للكون، وأنّ المعرفة المادية هي المصدر الوحيد للأخلاق وأنّ الإنسان يغلب عليه الطابع المادي لا الروحي... وقد مرت العلمانية الشاملة بثلاث مراحل أساسية:
١. مرحلة التحديث: حيث اتسمت هذه المرحلة بسيطرة الفكر النفعي على جوانب الحياة بصورة عامة.
٢. مرحلة الحداثة: وهي مرحلة انتقالية قصيرة استمرّت فيها سيادة الفكر النفعي مع تزايد وتعمّق آثاره على كافّة أصعدة الحياة.
٣. مرحلة ما بعد الحداثة: حيث الاستهلاك هو الهدف النهائي من الوجود، ومحرّكه اللذّة الخاصة.
يُنظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (٢٢٠/١) وما بعدها.

(٢) هذه الآثار لا تقتصر على الالتزام بالعلاقة الزوجية أو إنجاب الأطفال فحسب، بل تشمل أيّ شكل من أشكال العلاقات ذات الأبعاد الإنسانية؛ لذا بدأ يشيع في ثقافتهم تجنّب العلاقة التي تؤدي إلى تأجيج العاطفة (الحبّ)، ورفضها؛ باعتبارها آسرة، ويؤدّي قطعُها إلى إفساد اللذّة العابرة.

(٣) يُنظر كتاب: رحلتي الفكرية - في البذور والجذور والثمر، للدكتور عبدالوهاب المسيري، (ص ١٧٩) وما بعدها.

(٤) والسبب في ذلك: أنّ المرأة الغربية المطالِبة بحقوقها أدركت أنّها لن تنال مرادها وستبقى مهمّشة؛ نتيجة وجود نصوص في الكتاب المقدّس تتّهمها بأنّها رأس الخطيئة وسبب الشرّ في هذا العالم! ونتيجة وجود أقوال لكبار الفلاسفة الإغريق والرومان والنصارى تصوّرها كـ «رجل ناقص» أو «ذكر مشوّه»، مهمّتها في الحياة محصورة في غرضي الجنس والإنجاب!

المحافظة على الفطرة وحمايتها من الانحراف عبر محور التحصين

لذا انتشر في أوساط الحركة النسوية الشذوذ؛ وذلك لأنّ العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة تُبقي المرأة -بزعمهنّ- في علاقة مع الرجل وتحت سيطرته[١]. ثم لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل تطوّر لمحاولة تأنيث الرجل من خلال عدّة أمور، منها: التشجيع على الشذوذ الجنسي، وتغيير الجنس، وقلب الأدوار الطبيعية لكلّ من الرجل والمرأة؛ وبهذا تضعف سيطرة الرجل على المرأة أو تنعدم، ويمكنها أن تتعايش معه دون أن يكون مصدر تهديد لها!

> **انتقل انحراف الفطرة من كونه مجرّد «حرية شخصية» ينادي بها الأفراد وتدعمها بعض الجمعيات، إلى فرضه على الشعوب من خلال مواثيق الأمم المتحدة ومؤتمراتها وإلزامها للدول الأعضاء بالتوقيع عليها، مع استخدام الإعلام وسيلة لفرض هذا الانحراف ثقافيًا وفكريًا**

فرض انحراف الفطرة بالقوة:

اتّبعت الأمم المتحدة بدافعٍ من: النسويات اللاتي تسللن إليها[٢]، وأعداءِ الإنجاب والسكّان، والشاذّين والشاذّات جنسيًا؛ استراتيجياتٍ وسياساتٍ تهدف في ظاهرها إلى حماية حقوق الإنسان، وحقوق المرأة والطفل بشكل خاصّ، لكنّها في الحقيقة تهدف إلى فرض الانحراف في الفطرة بالقوّة.

فقد عملت الأمم المتحدة من خلال قوانينها ومواثيقها على إلغاءِ الفروق بين الرجل والمرأة، وإحداثِ تغيير جذري في الأدوار الفطرية لكلّ منهما داخل الأسرة، ودفع المرأة للعمل في الوظائف غير التقليدية وفي المجالات التي يشغلها الرجال، مع السعي لتحقيق الاستقواء الاجتماعي والسياسي للمرأة؛ وهذا من شأنه أن يزعزع استقرار الأسر ويؤدّي إلى هدمها. كما عملت على صرف الشباب عن الزواج بأساليب متنوّعة في مقابل التشجيع على الزنا وإباحة الدعارة وحمايتها قانونيًا ومجتمعيًّا!

وفيما يتعلّق بالشذوذ الجنسي: عملت الأمم المتحدة على إباحته، والدعوة إلى تمتّع الشواذّ

(١) قالت الناشطة النسوية «تي غريس اتكينسون»: «إذا كانت النسوية نظريةً فالسحاق هو التطبيق»، وقالت «مونيك ويتق»: «يتيح السحاق النمط الاجتماعي الوحيد الذي يمكن أن نعيش فيه بحرّية، فالسحاقية هي المفهوم الوحيد الذي أعلم أنه يقع خارج نطاق التقسيم الجنسي (رجل/امرأة)، لأنّ مَن تسمّى سحاقية ليست امرأة لا اقتصاديًا ولا سياسيًا ولا أيديولوجيًا».!

(٢) شاركت العديد من النسويات في صياغة ميثاق الأمم المتحدة، وصياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وفيهما النصّ على التساوي المطلق بين الرجال والنساء. كما قمن بتأسيس «لجنة مركز المرأة»، والتي من مهامّها تعزيز حقوق النساء في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية. وعملن على إدماج لغة «جندرية» في جميع الاتفاقيات الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة!

بعددٍ من الحقوق، والضغط لأجل رفع «التحريم» و«الوصم بالعار» عنهم، وإلغاء القوانين التي تجرّمهم وتعاقبهم، وتأمين المناخ المحيط بهم؛ لتشجيعهم على طلب خدمات الصحة الجنسية والإنجابية بلا خوف! إضافة إلى العديد من الحملات الإعلامية التي أطلقتها بغرض تسليط الضوء على «تنوّع المثليين» ومكافحة «رهاب المثلية» مثل حملة: «لستَ وحدَك»!

وجميع هذه القوانين وجدت طريقها إلى التنفيذ في معظم دول العالم من خلال التحايل تارةً، والضغط على الحكومات للقبول بها تارةً أخرى، وصولاً إلى فرض العقوبات على الدول المعارضة. كما استُخدمت الأمم المتحدة وهيئاتُها المختلفة الإعلام كواحدة من أهم آليات تسويق وفرض أجنداتها ومشروعاتها[١].

وقد استجابت كثير من الدول والمؤسسات الخاصة لهذه الضغوطات، إلى درجة إبعاد أئمة المساجد الذين يعارضون الشذوذ في دول تتفاخر بالليبرالية والديمقراطية! وقيام عددٍ من شبكات التواصل الاجتماعي بحذف المنشورات التي تعارض الشذوذ وإغلاق حسابات أصحابها بعد أن وصل عدد متابعيها إلى الملايين!

بل وصل الأمر خلال السنوات القليلة الماضية إلى سنّ بعض الدول الغربية قوانين تمكّن الأطفال من اتخاذ قرار تغيير جنسهم، ومنع الآباء من التدخّل في هذا الأمر، بل ومحاسبتهم وسجنهم إذا «تعدّوا» على هذه الحرّية التي تمنحها الدولة للطفل القاصر!

> **حماية الفطرة من الانحراف يمرّ من خلال محوري البناء، والتحصين:**
> ١. **البناء بإشاعة العلم بكلّ ما يحافظ على الفطرة السليمة ويعززها وينمّيها**
> ٢. **والتحصين من خلال محاربة الأفكار والسلوكيات الفاسدة التي يُشيعها الغرب**

الطريق للمحافظة على الفطرة وحمايتها من الانحراف:

الطريق إلى حماية الفطرة من الانحراف يمرّ من خلال محوري **البناء**، **والتحصين**.

فالبناء يكون بإشاعة العلم بكلّ ما يحافظ على الفطرة السليمة ويعززها وينمّيها من خلال:

١. غرس الإيمان بالله تعالى، وتوثيق الصلة به سبحانه، والعلم بشرعه والالتزام به، ورعاية الجوانب التربوية، وتعزيز الهوية والفخر بالانتماء للدين والمجتمع المسلم، مع التأكيد على أثر ذلك كلّه في تحقيق السعادة في الدارين.

٢. الحث على التفكّر في خلق الله والسنن التي أودعها في الكون، وهذا من شأنه تعميق الإيمان بالله تعالى، وإدراك حقائق الوجود وكيفية عملها وبالتالي الحذر من مخالفتها لتجنّب آثارها.

٣. المحافظة على سنن الفطرة المتعلّقة بالطهارة الشخصية؛ حتى تكون جزءًا أصيلاً من شخصية المسلم.

٤. العناية بالعلاقة الزوجية وقيام الأسرة على أسس صحيحة، وإعداد كلٍّ من الرجل والمرأة لوظيفتهم فيها، مع التركيز على إبراز مقاصد الشريعة من الزواج وتكوين الأسرة وإنجاب الأطفال.

٥. الاهتمام بالأولاد ورعايتهم، من خلال:

- تحقيق الاستقرار الأسري الذي يوفّر البيئة لتعزيز الفطرة الصحيحة.
- تمثيل القدوة لهم بالالتزام الصريح بالشرع والقيم العليا والسلوكيات الصحيحة.
- تحقيق الاستمرارية لهذا الاهتمام في جميع مراحلهم العمرية[٢].

---

(١) ينظر مقال: قراءة في كتاب المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، للدكتورة كاميليا حلمي محمد، جهاد بن عبدالوهاب خيتي، مجلة رواء، العدد الحادي عشر، ربيع الأول ١٤٤٣ هـ - تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢١م.

(٢) أثبتت الدراسات أنّ كثيرًا من الملحدين كانوا ممن يفتقدون وجود الوالدين في حياتهم وبخاصّة الأب، حسّيًا أو معنويًّا؛ مما أدّى إلى تعرّضهم لاضطرابات نفسيّة في مرحلة الطفولة قادتهم إلى الإلحاد، واقرأ إن شئت مقال «مسؤولية الأب في رعاية إيمان الأبناء»، د. وائل الشيخ أمين، مجلة رواء، العدد الخامس، ربيع أول ١٤٤٢ تشرين الأول ٢٠٢٠.

المحافظة على الفطرة
وحمايتها من الانحراف عبر محور البناء

والتحصين يكون من خلال:

١. محاربة العقائد والأفكار والسلوكيات الفاسدة التي يشيعها الغرب، وبيان عوارها ومخالفتها للدين والعقل والفطرة.

٢. إبراز الآثار المدمّرة لهذه العقائد والأفكار والسلوكيات الفاسدة، والتي ظهرت نتائجها في مجتمعاتهم، والتي من أهمّها:

- فقدان الأخلاق والفضائل والتمرّد عليها.
- ضياع المعاني الحقيقية للرجولة عند الرجال والأنوثة عند النساء.
- انتشار الرذائل والموبقات وما ترتّب عليها من ظهور الأمراض الجنسية التي لا تظهر لدى المرتبطين بعقد الزوجية.
- تهدّم الأسر وتفكّكها وانحسار مشاعر الاحترام بين أفرادها، وضياع الطفولة البريئة.

٣. الحدّ من التعرّض للإعلام المروِّج لمُفسدات الفطرة، وهو لا ينحصر في نشر الرذيلة بأشكالها المتنوّعة، بل هو شامل أيضًا لكّل ما يُفسد الأذواق من المواد التافهة التي لا فائدة منها، ولا يترتب على متابعتها سوى إضاعة الوقت والتعلّق بشخصيات أصحابها، وتحقيق لذّة مؤقتة بمتابعتها، ثم الإدمان عليها إدمانًا لا يقلّ ضررًا عن ضرر إدمان المسكرات والمخدّرات.

٤. معالجة الأفكار السلبية (الخاطئة) التي قد تنشأ لدى الأشخاص، وبخاصّة الأطفال والشباب والتي يتلقّونها غالبًا من الإعلام أو من المحيط الذي يعيشون فيه، وهذا يستدعي تقوية علاقة الوالدين بأولادهم وتحقيق استمرارية التربية كما تقدّم.

وختامًا..

فإنّ واجب رعاية الفطرة وحمايتها من الانحراف لا يقع على عاتق الأفراد فحسب، ولا يختصّ بالأسرة ضمن نطاقها المحدود، بل هو واجب المجتمع والأمّة؛ فالخطر محدق بها كلّها، بل إنّ الخطر محدقٌ بالإنسانية جمعاء! فإنّ دفعها نحو الإلحاد والسِفاح والشذوذ مؤذن بانقراض البشرية! والعجيب أنّ الدول التي تحارب شيخوخة مجتمعاتها هي نفسها التي تسنّ القوانين التي تهدم هذه المجتمعات بكل ما يحرف الفطرة وينكّسها؛ مما يعني أنّ معركة الفطرة يقود زمامها إبليس نفسه!

تأصيل

التمذهُب: بين التعصُّب واللامذهبية

أ. فايز الصلاح(*)

المذاهب الفقهية كنزٌ علمي وفير، وإرثٌ حضاري غزير، وهي حصيلة تراكمية متواصلة لجهود علماء الإسلام وأبحاثهم وحواراتهم منذ عهد الصحابة إلى وقتنا الحالي، وقد خُدمت بالتقعيد والتأصيل والتأليف والمتون والشروح، ومن المسائل التي يكثر السؤال عنها بخصوص هذه المذاهب: هل يجب على طالب العلم أن يلتزم بأحدها؟ وهل يمكنه ألا يفعل ذلك؟

مدخل:

كان الصحابة ﷺ يتلقّون الشريعة من النبي ﷺ في عهد النبوة، وبعد وفاته ﷺ انتشر كثيرٌ منهم في البلاد والأمصار وبثّوا العلم، وتتلمذ على بعضهم عددٌ من التابعين وساروا على نهجهم في الفقه والعلم، قال علي بن المديني: «لم يكن في أصحاب رسول الله ﷺ مَن له صُحبةٌ يذهبون مذهبه ويفتون بفتواه ويسلكون طريقته إلا ثلاثة: عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس»(١)؛ فتكوّنت المدارس الفقهية للصحابة، ثم استلم الرايةَ التابعون الذين اشتُهر كثير منهم بالفقه والفتوى فظهرت مدارس فقهاء التابعين، وهكذا .. حتى جاء عصر الأئمة أبي حنيفة فمالك فالشافعي فأحمد رحمهم الله، ودُوِّنت فتاواهم وأقوالهم من خلال ما كتبوه بأنفسهم، أو ما كتبه عنهم تلاميذهم وأصحابهم.

قال الشيخُ محمدٌ أبو زهرة: «اختلفت الآراءُ الفقهيةُ، وتكوَّنتْ من هذا الاختلافِ مدارس فقهيةٌ، ثم تَبَلْوَرَت المدارسُ، فصارتْ مذاهبَ فقهية»(٢).

أسباب انتشار المذاهب الأربعة دون غيرها:

عاش العالم الإسلامي نهضةً علميةً كبيرة، برز فيها عددٌ كبير من الفقهاء، لكن اقتصر الانتشار والاستمرار لأربعة مذاهب دون سواها للعديد من الأسباب، من أهمّها:

(*) ماجستير في الشريعة، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

(١) العلل، لابن المديني، ص (٤٢).

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية، ص (٣٠١).

١. التلاميذ والأصحاب الذين لازموا الأئمة وأخذوا أقوالَهم وآراءَهم؛ فنشروها ودوّنوها وبثّوها في مؤلفاتِهم، وساروا على طريقتِهم في الفقهِ وأصولِه.

قال الشيخُ محمدٌ الخضري: «وقد وُفّقَ هؤلاءِ الأئمةُ المشهورون الذين بقيتْ مذاهبُهم إلى أن يكونَ لهم أرفعُ التلاميذ شَأْنًا، فدوَّنوا ما تلقّوه عن إمامِهم من الأحكام، وأَخَذَها عنهم العددُ الكثيرُ من تلاميذِهم، فبثّوها بين الناس»[١]، وقد أدركَ بعضُ الأئمةِ جُهدَ تلامذتهم في إظهارِ أقوالِهم، فها هو الإمامُ الشافعيُّ يقولُ عن تلميذِه المزني: «المزنيُّ ناصرُ مذهبي»[٢].

وكان هناك أئمة كبار كالليث بن سعد والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم، ولكن كما قال الإمامُ الشافعيُّ عن الليثِ بن سعدٍ: «الليثُ أفقهُ من مالكٍ! إلا أنَّ أصحابَه لم يقوموا به»[٣].

٢. تمذهبُ الدولةِ بالمذهبِ؛ وهذا كان له أثر كبير في انتشارها؛ لأنّ المذهب أصبح بمثابة القانون الحاكم في القضاء والتدريس.

قال ابن حزم: «مذهبان انتشرا في بدءِ أمرهما بالرياسةِ والسلطان: مذهبُ أبي حنيفةَ، ... ومذهبُ مالكٍ عندنا بالأندلس»[٤]. وهناك أسباب أخرى، وبسطها ليس مقصودًا في هذا المقام.

عاش العالم الإسلامي نهضةً علميةً برز فيها عددٌ كبير من الفقهاء، لكن اقتصر الانتشار والاستمرار لأربعة مذاهب دون سواها للعديد من الأسباب، من أهمّها عناية التلاميذ والأصحاب بتدوينها ونشرها، واعتماد الدول لبعض هذه المذاهب

تعريف التمذهب:

للتمذهب تعريفات عديدة، لعلَّ من أجمعها: أنَّ التمذهبَ هو: التزامُ غيرِ العامي مذهبَ مجتهدٍ معيَّنٍ في الأصولِ والفروعِ، أو انتسابُ مجتهدٍ إليه[٥].

وهذه بعض الوقفات مع التعريف:

* الالتزام: ويقصد به الالتزامُ بالمذهبِ -في الجملة- مع الخروجِ عنه لمسوّغٍ، كما لو كانَ المذهبُ على خلافِ الدليلِ الأقوى.
* قُيد التمذهب بغير العامي؛ لأنَّ العاميَّ لا مذهبَ له؛ إذ حقيقةُ التمذهب إنَّما تكونُ لأهلِ العلم، الذين يختارون مذهبًا على آخر؛ لأسبابٍ علميةٍ، والعوام -في الواقع- ينسبون أنفسهم للمذاهب تقليدًا لمشايخهم.
* صورةُ التمذهبِ في الأصولِ أنْ يلتزمَ المتمذهبُ أصولَ إمامِه وقواعدَه، ويسلك طريقَه في الاجتهادِ عند النظرِ في الفروعِ.
* والمقصود بـ «الفروع»: المسائلُ الاجتهاديةُ من الفقه. لأنَّ المسائل غير الاجتهادية لا تُنسب لغير الشرع، فلا يقال فيها إنها مذهب فلان أو فلان من المجتهدين.
* «أو انتساب مجتهد إليه»، هذا القيدُ للعالم الذي بَلَغَ رتبةَ الاجتهادِ المطلق، وينتسبُ إلى مذهبٍ معيَّنٍ، دونَ التزامٍ بأصولِ المذهبِ وفروعِه، ودونَ أنْ تُؤَثِّرَ هذه النسبةُ على آرائِه الأصوليةِ والفروعية[٦].

التقليد والاجتهاد:

التمذهب مبنيٌّ على عددٍ من المسائل في التقليد والاجتهاد، كحُكم التقليد من حيث هو، وحكم الاقتصار على تقليد إمامٍ معين، وحكم البقاء على تقليد المجتهد بعد موته، وكلّ هذا جائز من حيث الجملة.

قال ابن تيمية: «والذي عليه جماهير الأمّة أنّ الاجتهاد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، ولا يُوجبون الاجتهاد على كلّ أحدٍ ويحرِّمون

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، لمحمد الخضري، ص (٣٢٦).
(٢) نقل قولَ الإمام الشافعي شمسُ الدين الذهبي في: العبر في خبر من غبر (٣٧٩/١)، وتاجُ الدين بن السبكي في: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٩٤)، وابنُ كثيرٍ في: طبقات الشافعية (١٣٠/١).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٥٦/٨).
(٤) جذوة المقتبس، لابن فتوح ص (٥٦٧)، ونفح الطيب، للتلمساني (١٠/٢).
(٥) ينظر: كتاب التمذهب (دراسة نظرية نقدية)، للدكتور خالد بن مساعد الرويتع (٥٥/١).
(٦) التمذهب (دراسة نظرية نقدية)، للدكتور خالد بن مساعد الرويتع، (٨٧/١).

التقليد، ولا يُوجبون التقليد على كلِّ أحد ويحرِّمون الاجتهاد»[١].

وقال ابنُ القيم في مسألةِ تقليدِ المجتهدِ الميتِ: «لو بَطَلَتْ بموتِهم- أي: لو بطلت المذاهب بموتِ المجتهدين- لبَطَلَ ما بأيدي الناسِ مِن الفقهِ عن أئمتِهم، ولم يَسُغْ لهم تقليدُهم، والعملُ بأقوالِهم»[٢].

وقال أبو القاسم الرافعي: «لو بَطَلَ قولُ القائلِ بموته؛ لبَطَلَ الإجماعُ بموتِ المجمعين، ولصارت المسألةُ اجتهاديةً»[٣].

> **التمذهب مبنيٌّ على عددٍ من المسائل في التقليد والاجتهاد، كحُكم التقليد، وحكم الاقتصار على تقليد إمامٍ معين، وحكم البقاء على تقليد المجتهد بعد موته، وكلّ هذا جائز من حيث الجملة**

أقسام الناس بالنسبة للتمذهب:

الناس في التمذهب قسمان:

١. **العامّة** الذين ليس لهم درايةٌ بالعلم الشرعي دراسةً وفهمًا، ويلتحق بهم طلبة العلم المبتدئون.

٢. **وطلبة العلم** الذين لهم تقدُّمٌ في العلم على اختلاف طبقاتهم.

أما العامي: فحقيقته أنّه لا مذهب له، إنّما مذهبه مذهب مفتيه[٤]، قال ابن عابدين الحنفي: «العامي لا مذهب له، بل مذهبه مذهب مفتيه، وعلّله في شرح التحرير بأنّ المذهب إنّما يكون لمن له نوعُ نظرٍ واستدلالٍ وبصرٍ بالمذهب على حسبه، أو لمن قرأ كُتابًا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى إمامه وأقواله، وأمّا غيره ممن قال: أنا حنفي أو شافعي، لم يَصِرْ كذلك بمجرّد القول، كقوله: أنا فقيه أو نحوي»[٥].

حكم التمذهب لطالب العلم:

اختلف العلماء في حكم التمذهب لغير العامي على أقوال ثلاثة: التحريم والوجوب والجواز.

» **القول الأول: تحريم التمذهب:**[٦]

ذَهَبَ إلى هذا القولِ: ابنُ خويزمنداد[٧]، وابنُ حزمٍ[٨]، والشوكاني[٩] وغيرهم كثير.

وقالوا: إنّ عدم الالتزام بمذهبٍ هو الأصل وهو الأيسر والأقرب للفهم الصحيح لمراد الله تعالى؛ لأنّ الله سبحانه حين أمر الجاهل بسؤال أهل الذكر لم يحدّد واحدًا معيّنًا منهم بل أطلق ذلك، ومن المعروف أنّ المطلق يبقى على إطلاقه حتى يأتي ما يقيده.

وإنّ مَن التزم مذهبًا معينًا يكون قد سوّى في واقع الأمر بين اتباع النبي المعصوم ﷺ وبين اتباع الفقيه غير المعصوم، ولاشكّ أنّه لا تسوية بين اتباع المعصوم الذي هو واجب، وبين اتباع غيره فإنّه سائغ ورخصة.

واستدلوا بأنّ فعل الصحابة والسلف الصالح في القرون المفضلة هو عدم الالتزام، فثبت أنّ الالتزام غير جائز.

ويمكن أن يناقش: بأنّ السلف لم يكونوا بهذه المذهبية المنهجية، لكن كان كثير من التابعين لهم أئمة من الصحابة يقتدون بهم ويأخذون بأقوالهم، فهناك أصحاب ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضي الله عن الجميع.

وبعضُ أصحاب هذا القول بنوه على ذم التقليد مطلقًا، وربما تحريمه، وإلزام جميع المكلفين بالاجتهاد كلٌّ بحسبه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٢٠٣-٢٠٤).
(٢) إعلام الموقعين (٦/٢٠٢).
(٣) ينظر: العزيز شرح الوجيز للرافعي (١٢/٤٢١).
(٤) وقد يقال: إن هذا يخالف الواقع، فإن عامة الناس ينتسبون بل ويفتخرون بالانتساب للمذاهب، فهذا يقول: أنا شافعي، وآخر يقول: نحن من قديم على المذهب الحنفي، وهكذا، يقال في الجواب: ليس كل ما هو واقع موافق للقواعد والأصول.
(٥) رد المحتار، لابن عابدين (٤/٨٠).
(٦) ينظر كتاب التمذهب (دراسة نظرية نقدية)، للدكتور خالد الرويتع (٢/٧٩٢).
(٧) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر (٢/٩٩٣).
(٨) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام (٦/٦٥-٧٥).
(٩) ينظر: القول المفيد للشوكاني، ص (١٠١) وما بعدها.

ضوابط مهمة في التمذهب

١ معرفة أن من يخالفه في المذهب إنما يخالفه في طريقة فهم النصوص لا في أصل الأخذ بهما

٢ ليس في أئمة المذاهب معصوم، فكلّ يُؤخذ من قوله ويُردّ عليه

٣ لا يجوز اتخاذ الانتساب إلى المذاهب دعوة يوالى ويعادى عليها

٤ لا يجوز الاعتقاد بأنه يجب على الناس اتباعُ واحدٍ بعينه من الأئمة دون غيره، وأن الصواب قوله فحسب

٥ لا يُلزم الشخص بالتزام مذهب معين دون انتقال إلى غيره ما دام قائده الحق

٦ لا يجوز للشخص إذا تمكّن في العلم أن يصرّ على تقليد مَن تبين له خطؤه

٧ يجب على متبع أحد المذاهب أن يعرف لبقية الأئمة والفقهاء حقّهم وفضلهم

» القول الثاني: وجوبُ التمذهبِ:

وهو قول كثير من أهل العلم والفقه، ولا سيما من المتأخِّرين، بل بالغ بعضهم في ذلك وجعله إجماعًا، ونسبه الأميرُ الصنعاني إلى الأقلِّ[١]، وقال محمد السفاريني: «قَطَعَ الكبارُ بلزومِ التمذهبِ بمذهبٍ»[٢].

وقال الشيخُ محمد الأمين الشنقيطي: «متأخرو الأصوليين مِن جميعِ المذاهبِ مطبقون كلّهم على وجوبِه»[٣]، أي: على وجوبِ التمذهب.

وعمدتهم في الوجوب: أنّه لو جاز له اتباع أيَّ مذهب شاء؛ لأفضى ذلك إلى أن يلتقط رُخَصَ المذاهب متّبعًا لهواه، وهذا انحلالٌ عن التكليف وسبب للفوضى الدينية.

جواز تمذهب طالب العلم بأحد المذاهب الأربعة دون تعصب أو جمود عليها هو قول جمهور أهل العلم منذ القدم

ويمكن أن يناقشَ: بأنّ هذا لا يلزم، فقد يعمل بالأحوط أو الأصلح أو ما يراه أظهرَ دليلاً.

» القول الثالث: جوازُ التمذهبِ بأحدِ المذاهبِ الأربعةِ:

فليس واجبًا ولا محرّمًا، وهذا هو القول الراجح؛ لأنّ الواجب ما أوجبه الله والمحرّم ما حرّمه الله، ولا دليل على الإيجاب والتحريم، ولا مانع من الانتساب للمذاهب بشرط عدم التعصّب.

(١) ينظر: إجابة السائل، ص (٤١٠).
(٢) لوامع الأنوار البهية (٤٦٥/٢).
(٣) الرحلة إلى إفريقيا، ص (١٥١).

وقد وقع التباس في معنى التعصّب عند كثيرين، فيرون أنك إذا عرضت أدلّتك على منتسب لمذهب أو مخالف لقولك فلم يقتنع بها، ولم يرَها أدلّة ظاهرة عنده؛ وَصَفَهُ المخالف بالتعصّب حتى لو كان المعروض عليه مِن العوام الذين لا يفهمون الأدلة، ولا يعرفون المقصود بها، وهذا ليس من التعصُّب في شيء؛ فقد لا تتبيّن له المخالفة، وقد يقدّم فهمَ إمامه وجوابَه عن هذا الدليل على فهم خصمه، إلى غير ذلك من المعاني، بل التعصّب أن يعتقد أنّ الحق في مذهبه دون غيره، أو يوالي ويعادي عليه أو يتمسّك بقول شيخه بعد بيان العلماء واتفاقهم على أنه قولٌ شاذٌّ ونحو ذلك.

وجواز التمذهب نَسَبَهُ الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى جماهير العلماء[١]، ونسبه الصنعاني إلى الجمهور[٢]، وهذا القولُ -عدم لزوم التمذهب بمذهب محدد- هو ظاهرُ قولِ الإمامِ مالكٍ كما ذكره بدرُ الدّينِ الزركشي[٣]، وظاهرُ قولِ الإمامِ أحمدَ[٤].

قال العز بن عبدالسلام: «يجوز تقليد كلّ واحد من الأئمة الأربعة ﷺ ويجوز لكلّ واحدٍ أن يقلّد واحدًا منهم في مسألة، ويقلّد إمامًا آخر منهم في مسألة أخرى، ولا يتعيّن عليه تقليد واحدٍ بعينه في كلّ المسائل»[٥].

قال ابن تيمية: «ولا يجب على أحدٍ من المسلمين تقليد شخصٍ بعينه من العلماء في كلّ ما يقول... واتباعُ شخصٍ لمذهبِ شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنّما هو مما سُوّغ له، ليس هو مما يجب على كلّ أحد»[٦].

> **التعصّب المذموم هو أن يعتقد الشخص أنّ الحقَّ في مذهبه دون غيره، أو يوالي ويعادي عليه أو يتمسّك بقول شيخه بعد بيان العلماء واتفاقهم على أنه قولٌ شاذٌّ ونحو ذلك**

الفرق بين تمذهب العامّي وتمذهب طالب العلم:

هناك فرق بين تمذهب كلّ من العامي وطالب العلم، ويتّضح ذلك بالتالي:

فالعامي: غير متخصِّص بدراسة الشريعة؛ فهو لا يعرف كيفيّة استنباط الأحكام من الأدلّة، ولا مراتب الاستدلال ولا الترجيح، فضلاً عن معرفة أدلّة كلّ مسألة والإجابة عن الاعتراضات عليها؛ فلا يسعه إلا التقليد المحض لعالمٍ يثق بدينه وعلمه.

ويمكن معرفة العالم من خلال تزكية أهل العلم المعروفين له، أو سؤالهم عنه، أو اشتهار علمه وفضله وفقهه، وبهذا يظهر تفاوت أهل العلم في قوّتهم العلمية، وإمكانية تقليد العامي لهم في المجالات التي تميّزوا بها، من فقهٍ أو عقيدةٍ أو سلوك، وغير ذلك.

ويجوز للعامّي ترك فتوى العالِم إذا لم تطمئن نفسُه إليها؛ لغلبةِ ظنّه أنّه لم يفهم سؤاله، أو أنّه خالف ما أخذه عن غيره ممن هو أعلم منه وأفقه، ونحو ذلك، لحديث وابصة بن معبد ﷺ أنّ النبي ﷺ قال له: (جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ البِرِّ والإِثْمِ؟) فقال: نَعم، فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدرِي وَيَقُول: (يا وابِصَةُ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، ثلاثَ مَرّاتٍ، البِرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إليه النَّفسُ، والإثمُ ما حاكَ في النفسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصدرِ وَإِن أَفْتاكَ النَاسُ وَأَفْتَوْكَ)[٧].

قال ابن القيم: «لا يجوز العمل بمجرّد فتوى المفتي إذا لم تطمئن نفسه، وحاك في صدره من قبوله، وتردّد فيها؛ لقوله ﷺ: (استفت نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك)»[٨].

وقال القرطبي: «لكن هذا إنما يصحّ ممّن نوّرَ الله قلبه بالعلم، وزيّنَ جوارحه بالوَرَع، بحيث يجد للشبهة أثرًا في قلبه، كما يُحكى عن كثير من سلف هذه الأمة»[٩].

(١) جامع المسائل، المجموعة الثامنة، ص (٤٣٩).
(٢) ينظر: إجابة السائل، ص (٤١٠).
(٣) ينظر: البحر المحيط (٣١٩/٦).
(٤) ينظر: العدة (١٢٢٦/٤).
(٥) الفتاوى للعز ابن عبدالسلام، ص (١٢٢).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٠٩/٢٠).
(٧) أخرجه أحمد (١٨٠٠١).
(٨) إعلام الموقعين (١٩٥/٤).
(٩) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي (٤٩٢/٤).

وهذا شبيهٌ بقوله ﷺ: (فمَن قَضَيتُ له مِن حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعةً من النار)[1]؛ فكما أنّه لا ينفعه قضاء القاضي إذا علم خلافه أو شكّ في صحته، فكذلك لا ينفعه فتوى المفتي.

أمّا تمذهب طالب العلم فمختلف:

إذ ينبغي على طالب العلم أن يَعرف دليلَ العالم على المسألة، وكيفية استنباط الحكم من الدليل، والإجابة عن اعتراضات المخالفين له؛ حتى يكون على بصيرةٍ واطمئنان، فيكون متّبعًا لا مقلدًا محضًا.

فائدة التمذهب وأهمّيته لطالب العلم في بداية الطلب:

قد يقول قائل: إن كان التمذهب واتباع الدليل كما سبق، فلم لا أرجع للدليل مباشرةً وأستنبط منه الحكم الشرعي؟ أو آخذ الراجح من أقوال أهل العلم دون المرور الطويل بالمذاهب وأقوالها؟

وهذا السؤال -على وجاهته ابتداءً- غير دقيق، وللإجابة عليه لا بدّ من معرفة أوجه تميّز المذاهب الفقهية وكُتبها:

١. فهي قد جمعت عامّة مذاهب الصحابة والتابعين، وفقهاء الأمصار الذين لم يُحفظ لهم مذهب.

٢. لقيت العناية الكبيرة من علماء الأمّة، فخُدمت بالشرح والتدليل والمناقشة والترجيح.

٣. جمعت سائر الأبواب الفقهية، والمسائل الشرعية.

٤. وجود مستويات متعدّدة لكتب المذاهب، فمنها المختصر، ومنها الموسّع، ومنها الذي يقتصر على ذكر القول المعتمد في المذهب، ومنها ما يذكر أوجه المذاهب الأخرى، ومنها ما يقارن بين أقوال المذاهب ويناقش ويرجّح.

٥. لكلّ مذهب من المذاهب أسسه وأصوله التي يعتمد عليها في الاستدلال والاستنباط وضبط المسائل، والترجيح بين الأدلة والأقوال، وهي أصول غنيّة، تتابَع عليها علماء المسلمين بالشرح والتوضيح والترجيح والنقد.

وجميع ما سبق يجعل كتب المذاهب ثروة علمية، وطريقة منهجية لا غنى عنها لطالب العلم، أمّا طلب العلم خارج هذه المذاهب فيعني إمّا طَلَبَ العلم دون منهجية صحيحة منضبطة، أو طَلَبَ العلم على طريقة عالمٍ واحدٍ من المتأخرين مما يعني التزام منهجه وتقليدَه فحسب.

وحتى ما يعدُّه بعضهم «دراسة على الراجح من أقوال أهل العلم» فهو لا يعدو كونه تقليدًا لشيخه ومعلّمه في ترجيحاته، مع الجهل بتأصيلات أهل العلم ومناهجهم.

لذا جاءت نصائح وتوجيهات أهل العلم في طلب العلم على طريقة أحد المذاهب، والتدرّج بذلك، ومن ذلك قول الشيخ بكر أبو زيد في وصاياه لطالب العلم: «فأمامك أمور لا بدّ من مراعاتها في كلّ فنٍّ تطلبه: حفظُ مختصرٍ فيه، ضبطه على شيخ متقن، عدم الاشتغال بالمطوّلات وتفاريق المصنّفات قبل الضبط والإتقان لأصله...»[2].

> **طلب العلم خارج المذاهب يعني إمّا طَلَبَ العلم دون منهجيةٍ صحيحةٍ منضبطة، أو طَلَبَ العلم على طريقة عالمٍ واحدٍ من المتأخّرين مما يعني التزام منهجه وتقليدَه فحسب**

ضوابط مهمة في قضية التمذهب:

القول بجواز التمذهب لا يعني التعصّب والتقليد المذموم، وحتى لا يقع المتمذهب في ذلك؛ لا بدّ من تنبيهات مهمّة وهي منارات على الطريق لكلّ سائر في طريق العلم:

١. يجب على المرء أن يستحضر عند أخذه بهذا المذهب أنّه يتّبع فهم هذه المدرسة الفقهية للكتاب والسنّة، ومَن يخالفه من المذاهب الأخرى يخالفه في طريقة الفهم لهذه النصوص لا في أصل الأخذ بهما.

٢. ليس أحدٌ معصومًا من الخطأ إلا الرسول ﷺ، وكلّ إمام يُؤخذ من قوله ويُردّ عليه كما صرّح بذلك الأئمة.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧) ومسلم (١٧١٣).
(٢) حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، ص (١٥٥).

قال الإمام أبو حَنِيفة: «إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي»[١]، وقال: «لا يحلّ لأحدٍ أن يأخذ بقولنا؛ ما لم يعلم من أين أخذناه»[٢].

وقال الإمام مالك: «إنّما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكلّ ما وافق الكتاب والسنّة فخذوه، وكلّ ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[٣].

وقال الإمام الشافعي: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ؛ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، وَدَعُوا ما قلت»[٤].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «رأي الأوزاعي، ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة؛ كلّه رأي، وهو عندي سواء، وإنّما الحجة في الآثار»[٥].

وهذا يعني: أنّ على طلبة العلم والعلماء ممن لديهم الملكة الفقهية والقدرة على النظر والاستدلال عدم التعصّب للمذهب والإصرار عليه إذا تبيّن خطؤه في مسألة من المسائل.

٣. لا يجوز اتخاذ الانتساب إلى المذاهب الفقهية دعوة يوالى ويعادى عليها، فالولاء والبراء لا يكون إلا على الإيمان والتقوى والكفر والفسوق، فالمؤمن يوالي كلّ مؤمن تقي، ويعادي كل كافر وفاسق بقدر ما فيه من الفسق.

قال ابنُ تيمية: «الأسماءُ التي قد يسوغُ التسمي بها، مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل: كالقيسي واليماني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري؛ فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أيّ طائفة كان»[٦].

٤. يجب ألّا يعتقد أنّه يجب على جميع الناس اتباعُ واحدٍ بعينه من الأئمة دون الإمام الآخر، وأنّ قوله هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول مَن خالفه، فمن اعتقد هذا كان جاهلاً ضالاً.

٥. لا يُلزم الملتزم بمذهبٍ ما ألّا يتجاوز ما فيه، وإنّما التزامه بمذهبٍ ما مما يسوغ له ويجوز، وعلى هذا يجوز أن يستمرَّ في تقليده ويجوز أن ينتقل إلى غيره إذا كان قصده من الانتقال أمرًا دينيًا، وليس مقصوده تتبّع رخص المذاهب.

ومعنى هذا أن يكون قائده في التمذهب وفي الانتقال: البحثُ عن حكم الله ونشدان الحقّ، لا أغراض النفس وشهواتها.

٦. لا يجوز للمرء -إذا تمكّن في العلم وصارت لديه ملكة فقهية وقدرة على النظر والاستدلال- أن يصرّ على تقليد مَن تبين له عدم رجاحة قوله أو خطؤه، بل على المقلّد إذا بان له خطأ متبوعه أن يُقلع من ساعته ويتّبع الصواب الذي ظهر له، فإن أصرّ على متابعته والتعصّب له فقد خالف أمر الشارع وخالف أمر متبوعه؛ لأنّ كلّ عالم يصرّح بترك قوله إذا بان للمتّبع خطؤه[٧]. أمّا إذا لم تكن لديه هذه الملكة والقدرة فلا يحقّ له تصويب أحد القولين.

يقول الكمال بن الهمام: «لو التزم مذهبًا معيّنًا كأبي حنيفة أو الشافعي؛ فهل يلزمه الاستمرار عليه، فلا يعدل عنه في مسألة من المسائل؟ قيل: يلزم؛ لأنّه بالتزامه يصير ملزمًا به، كما لو التزم مذهبه في حكم حادثة معيّنة؛ ولأنّه اعتقد أنّ المذهب الذي انتسب إليه هو الحق، فعليه الوفاء بموجب اعتقاده.

وقيل: لا يلزم، وهو الأصحّ كما في الرافعي وغيره؛ لأنّ التزامه غير ملزم، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ﷺ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمّة فيقلّده في دينه في كلّ ما يأتي ويذر دون غيره»[٨].

---

(١) رد المحتار (٦٣/١).
(٢) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، لابن عبدالبر، ص (١٤٥).
(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر (٣٢/٢).
(٤) الاحتجاج بالشافعي، للخطيب (٢/٨).
(٥) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر (١٤٩/٢).
(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤١٦/٣).
(٧) الاعتصام، للشاطبي (٣٤٥/٢).
(٨) التقرير والتحبير (٣٥٠/٣).

ويقول الإمام القرافي: «قال يحيى الزناتي: يجوز تقليد المذاهب في النوازل، والانتقال من مذهب إلى مذهب، بثلاثة شروط:

- ألّا يجمع بينهما على وجه يخالف الإجماع، كمن تزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، فإنّ هذه الصورة لم يقل بها أحد.
- وأن يعتقد فيمن يقلّده الفضل بوصول أخباره إليه، ولا يقلّده رميًا في عماية.
- وألّا يتتبع رُخَصَ المذاهب. قال: والمذاهب كلّها مسالك إلى الجنة، وطرق إلى الخيرات، فمن سلك منها طريقًا وصله»[1].

٧. يجب على مريد اتباع أحد من مذاهب الأئمة رحمهم الله أن يعرف للأئمة غير إمامه وللفقهاء غير فقهاء مذهبه حقّهم وفضلهم، فلا ينال منهم، ولا يتعرض لهم بسوء، بل عليه أن يرى الجميعَ أئمةً فضلاء، وأنّ كلاً منهم سالك في الطريق المكلّف به، وألّا يتعصّب لمتبوعه على غيره، فإنّ هذا يؤدّي إلى تحكيم الرجال في الحقّ والإعراض عن أمر الله وأمر رسوله ﷺ[2].

وفي هذا تحقيق التوازن بين احترام الأئمة وعدم التعصّب لهم ورد ما أخطؤوا فيه.

من الخطأ الفادح اعتقاد أنّه يجب على جميع الناس اتباعُ واحدٍ بعينه من الأئمة دون الإمام الآخر، وأنّ قوله هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول مَن خالفه، فمن اعتقد هذا كان جاهلاً

قال ابن القيم: «ولا بدَّ من أمرين: أحدهما أعظم من الآخر، وهو النصيحة لله ورسوله وكتابه ودينه، وتنزيهه عن الأقوال الباطلة المناقضة لما بعث الله به رسوله من الهدى والبينات، التي هي خلاف الحكمة والمصلحة والرحمة والعدل، وبيان نفيها عن الدين وإخراجها منه، وإن أدخلها فيه من أدخلها بنوع تأويل. والثاني: معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأنّ فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبولَ كل ما قالوه؛ وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول فقالوا بمبلغ علمهم؛ والحقُّ في خلافها لا يوجب اطِّراحَ أقوالهم جملةً وتنقُّصَهم والوقيعةَ فيهم؛ فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصدُ السبيل بينهما، فلا يُؤثَّم ولا يُعصَم، فلا يُسْلَك بهم مسلك الرافضة في عليّ ولا مسلكهم في الشيخين، بل يُسلك مسلكهم أنفسهم فيمن قبلهم من الصحابة، فإنّهم لا يؤثِّمونهم ولا يعصمونهم، ولا يقبلون كلّ أقوالهم ولا يهدرونها. فكيف ينكرون علينا في الأئمة الأربعة مسلكًا يسلكونه هم في الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة؟

ولا منافاةَ بين هذين الأمرين لمن شرح الله صدره للإسلام، وإنما يتنافيان عند أحد رجلين: جاهل بمقدار الأئمة وفضلهم، أو جاهل بحقيقة الشريعة التي بعث الله بها رسوله، ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أنّ الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلّة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده؛ فلا يجوز أن يُتَّبع فيها، ولا يجوز أن تُهدَر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين»[3].

الخلاصة:

أنّ المذاهب الأربعة وغيرها كنز علمي عظيم نعتز به -نحن الأمة الإسلامية- ولا يمكن بل لا يجوز تجاوزه من حيث الجملة.

ولا مانع من انتساب طالب العلم إلى أحد هذه المذاهب من غير تعصّب، فيتعلّم الفقه على أساسها فإذا تأهل وتبيّن له خطأُ أو رجحانُ مذهبٍ أخذَ بالصحيح والأرجح عند الإمام الآخر.

وأما العاميّ فإنّما يتّبع مفتيه، مع الانتقال عنه إن ظهر شذوذ قوله أو غلب على ظنّه خطؤه.

يجب على المرء أن يعرف للأئمة والفقهاء غير فقهاء مذهبه حقّهم وفضلهم، فلا ينال منهم، ولا يتعرض لهم بسوء، بل عليه أن يرى الجميعَ أئمةً فضلاء، وأنّ كلاً منهم سالك في الطريق المكلّف به، وألّا يتعصّب لأئمته ومشايخه على غيرهم

(١) الذخيرة (١/١٤٠).
(٢) الاعتصام (٢/٣٤٨).
(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/٢٢٣).

صور (ناسا) وحوار العلم والإيمان

م. فداء ياسر الجندي (*)

يزعم الملحدون أنَّ الإيمان قرين الجهل، وبأنَّ الإنسان لجأ للإيمان ليُبدِّد مخاوفه الناجمة عن جهله بما يحيط به من ظواهر طبيعية وكونية، فيعلو صوتهم كلما تقدَّمت الاكتشافات العلمية وازداد الإنسان علمًا بتفاصيل الكون وقوانينه، ويدَّعون في زهوٍ أجوف أنهم ليسوا بحاجة للإله والإيمان به، ولو تدبَّروا لعلموا أن ما يكشفه العلم من آفاق وأبعاد ما هي إلا أدلة إضافية على خالق هذا الكون وقدرته البديعة

لم تأت الصور التي بثَّتها وكالة ناسا للفضاء الخارجي بجديد، كل الذي فعلته أنها جعلتنا نتمكّن من رؤية أعماق الكون بشكل أكثر وضوحًا وأشدَّ سطوعًا من ذي قبل، وفتحت الباب لعلماء الفلك ليقوموا بالمزيد من الدراسات الفلكية المبنية على الصور الواضحة الساطعة.

ولكن نشر تلك الصور أثار نقاشات جانبية عديدة، لا علاقة لها بمحتوى الصور ولا بموضوعها، نقاشات أثارها بعض العلمانيين والملحدين عمومًا والعرب منهم خصوصًا، على مواقع التواصل وفي بعض وسائل الإعلام، إذ وجدوها فرصة لبث أفكارهم المبنية على إنكار وجود الخالق سبحانه، فراحوا يتغنَّون بهذا الإنجاز، وكأنه دليل على نفي وجود الخالق سبحانه، ويزعمون أن العلم الذي أوصل العلماء لرؤية أعماق الكون سيعينهم على كشف المزيد مما خفي من أسراره، وسيجيب على جميع الأسئلة الوجودية، مثل: كيف نشأ الكون؟ وكيف تشكَّلت المجرات والنجوم والكواكب؟ وكيف وُجدت الكائنات على وجه الأرض، سيُجيب عنها إجابات علمية بحتة، دون الحاجة لوجود إلهٍ قدير حكيم وراء ذلك كلِّه، وهم يعتمدون على مغالطةٍ ما فتئوا يُردِّدونها كلما حصل كشفٌ علميٌّ جديد، حتى صارت شعارًا لا يغيب عن أدبياتهم، ألا وهي: أن العلم والإيمان بالله نقيضان لا يلتقيان، فالإيمان

(*) كاتب من سورية.

بالله (برأيهم) إيمانٌ بغيبٍ لا دليل عليه، أما العلم فهو يقوم على ما تدركه الحواس، ولا وجود فيه لغيب ولا لإيمان بإله، وسنرى أن أكبر المغالطات التي يرتكبونها هي زعمهم أنَّ العلم كلَّما تقدم علا صوت المادية والإلحاد، وخَفَت صوت الإيمان بالله، ولكن الحقيقة الساطعة التي أكدها ما انبثق عن العلوم الحديثة من كشوف في العقود الأخيرة معاكسة تمامًا لما يزعمون، فالحقيقة كما سنشرح في السطور التالية، أنَّ كلَّ اكتشافٍ علميٍّ جديد هو بمثابة دليل جديد قاطع على أن هذا الكون من أكبر مجرة في السماء إلى أصغر ذرة على الأرض، ما كان له أن يوجد ويبقى وتقوم فيه حياة إلا بتدبير إلهٍ حكيم خبير حي قيوم مطلق القدرة.

فإن كان الملحدون ونخص بالذكر العرب منهم، يجهلون ما يحدث في ميدان العلم من كشوفٍ وتطوراتٍ مذهلة، فتلك مصيبة، وإن كانوا يعلمون ذلك ويُصرُّون على إلحادهم، فالمصيبة أعظم.

> **كل اكتشافٍ علميٍّ جديد، هو بمثابة دليل جديد قاطع على أن هذا الكون من أكبر مجرة في السماء إلى أصغر ذرة على الأرض، ما كان له أن يوجد ويبقى وتقوم فيه حياة إلا بتدبير إلهٍ حكيم خبير حي قيوم مطلق القدرة**

الإيمان بالله من أسرار الثورة العلمية في عصر النهضة العلمية:

ولنبدأ بقصة العلوم المعاصرة مع الإيمان من بدايتها، من القرن السابع عشر، الذي شهد بدايات النهضة العلمية في العالم الغربي ولا ندري إن كان الملحدون يجهلون أو يتجاهلون أن الرواد الذين قامت النهضة العلمية الكبرى في الغرب على أكتافهم، كانوا من المؤمنين بالله، بل كان الإيمان هو الذي يدفعهم إلى البحث العلمي وإلى الاكتشاف والاختراع والإبداع، ونكتفي بذكر أقوال بعضهم، ففيها ما يغني عن الشرح والإطالة.

يقول العالم البولندي الشهير «نيكولاس كوبرنيكوس» المتوفى عام ١٥٤٣م، وهو الذي قَلَب مفاهيم علم الفلك التي كانت سائدةً في زمانه رأسًا على عقب: «على العالم أن يطلب الحقيقة في كل شيء، إلى المدى الذي يؤهله له المنطق الذي منحه الله إياه».

ويقول العالم الإيطالي المعروف «غاليليو»، المتوفى عام ١٦١٥م، وهو فلكي وفيلسوف وفيزيائي من كبار علماء عصره: «لست مضطرًا إلى الاعتقاد أن الله الذي منحنا موهبة الحواس والمنطق والحكمة، هو نفسه يدعونا إلى التخلي عن كل ذلك».

ويقول العالم الكيميائي والفيلسوف والمخترع الأيرلندي «روبرت بويل»، المتوفى عام ١٦٧٤م، وهو من أعظم علماء الكيمياء في القرن السابع عشر، ويعرف بأنه أبو الكيمياء: «عندما أتأمل الكواكب والنجوم بواسطة التلسكوب، وأتبين الإبداع الفذ الذي لا يضاهى في دقائق الصنعة بواسطة المايكروسكوب، وأقرأ كتاب الطبيعة في مختبرات الكيمياء، أجد نفسي تهتف دائمًا دون شعور: كم هو بديع صنعك يا إلهي، إنها حكمتك التي أبدعت كل شيء».

أما العالم الإنجليزي الغني عن التعريف «إسحق نيوتن»، المتوفى عام ١٧٢٧م، مؤلف كتاب (الأصول العلمية لفلسفة الطبيعة) وهو أهم الكتب العلمية في علم الفيزياء على مر العصور، وأكثرها تأثيرًا في مسار التطور العلمي، فقد قال عندما ألف كتابه المذكور: «لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أضع نصب عيني أن يكون سبيلاً إلى مساعدة الناس على أن يؤمنوا بالله المعبود، ولن يسعدني شيء أكثر من تحقيق هذه الغاية»، ومن أقواله المأثورة: «يكفي أن أنظر إلى إبهامي حتى أكون مؤمنًا بالله».

تدلُّنا هذه الأقوال بشكل واضح على وجود اعتقادٍ راسخ بين علماء ذلك الزمان، في مختلف تخصصات العلوم، بأنَّ الطبيعة كانت مفهومةً لأنها صُنعت بواسطة مصمم حكيم، أي إنها من صنع الله سبحانه، وكان البحث عن حكمة الله في تصميم الكون هو الملهم الأول لهم عند القيام بأبحاثهم واكتشافاتهم.

> **«لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أضع نصب عيني أن يكون سبيلاً إلى مساعدة الناس على أن يؤمنوا بالله المعبود، ولن يسعدني شيء أكثر من تحقيق هذه الغاية»**
>
> إسحاق نيوتن

جذور وخلفية الإلحاد المعاصر:

غير أن هؤلاء قد خلف من بعدهم خلف، في القرن التاسع عشر وما بعده، حادوا عن جادة أسلافهم، وغرَّهم ما توصلت إليه العلوم، وظنوا أنه بوجود العلم لا حاجة لوجود الله حتى يبرروا ما يرونه من خلق وعظمة وإبداع وتصميم في الكون، ويعبّر عن حال هؤلاء -مثلاً-، العالم الفرنسي (بيير لابلاس)، الذي يروي المؤرخون أن نابليون بونابرت، إمبراطور فرنسا على أيامه، قد استدعاه إلى قصره بعد أن نشر كتابه الشهير (هندسة الأجرام السماوية)، عام ١٧٩٩م، وأثنى على علمه وعلى كتابه، ثم قال له: «لقد قرأت كتاب نيوتن (الأصول العلمية لفلسفة الطبيعة)، فوجدته يذكر الله في معظم صفحاته، أما كتابك فلم أجد فيه أي ذكر لله»، فأجابه لابلاس بغرور وتكبر: «لا أحتاج لتلك الفرضية يا سيدي». لقد ظنَّ لابلاس أنه يستطيع تفسير الدقة المتناهية التي وجد عليها النظام الشمسي بالصدف العشوائية العمياء.

ثم انتشر هذا المفهوم الإلحادي، الذي يفسر الظواهر الكونية والطبيعية بالصدفة والعشوائية من علم الفلك والميكانيكا إلى بقية العلوم في ذلك القرن (القرن التاسع عشر)، ومنها علم الأحياء، فرأينا (تشارلز دارون) ينشر كتابه (أصل الأنواع)، الذي زعم فيه أن كل ما دبَّ فوق الأرض من كائنات حية، منذ ظهرت الحياة إلى يومنا هذا، حدث بواسطة آلية طبيعية عمياء لا تصميم وراءها، هي آلية الاصطفاء الطبيعي، وهذا (برأيه) ينفي الحاجة لافتراض وجود إله حكيم قدير وراء تصميم وخلق الكائنات الحية.

واستمر انتشار الموجة الإلحادية في العالم الغربي، حتى بلغت أوجها على يد عددٍ ممن أطلق عليهم (الملحدون الجدد)، وأشهرهم ريتشارد دوكنز، أحد كبار الملحدين في عصرنا، والذي يقول في كتابه (صانع الساعات الأعمى): «لم أكن أتخيل أن أكون ملحدًا لو أنني عشت قبل سنة ١٨٥٩م، وهي السنة التي أصدر فيها دارون كتابه (أصل الأنواع)»، ودوكنز هذا له مقولةٌ إلحاديةٌ شهيرة، يراها كل عاقل مقولة متناقضة، وهي: «أنَّ الكون وما فيه من كواكب ومجرات، والأرض وما فيها من كائنات حية، قد وُجدت على الحالة التي نراها بواسطة مجموعة متعاقبة من الصدف العشوائية، ولكنها (تبدو) وكأنها ناتجة عن تصميم محكم!»

وكان من أسباب تفشي الفكر الإلحادي في الغرب، أن المؤسسات العلمية والجامعات، ولأسباب ليس هذا موضع التفصيل فيها، تبنَّت وبقوة وجهة النظر الإلحادية، وأصبحت نظرية دارون مفروضةً على كل الجامعات والمدارس، وأصبح محظورًا على من يدَرِّسون المواد العلمية في الجامعات والمدارس، أن يذكروا تصريحًا أو تلميحًا، أن هناك تصميمًا ذكيًا مبدعًا وراء تنوع الكائنات، أو وراء أي ظاهرة في الكون، أرضية كانت أو فلكية، وبلغ التنكر للخالق سبحانه مبلغًا جعل مجلة التايم الأمريكية الشهيرة تصدر أحد أعدادها عام ١٩٦٦م وقد كتبت على غلافه بالخط العريض (هل مات الله؟)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

من أسباب تفشِّي الإلحاد في الغرب، أنَّ المؤسسات العلمية والجامعات، تبنَّت وبقوة وجهة النظر الإلحادية، وأصبحت نظرية دارون مفروضةً على كل الجامعات والمدارس، وبات من المحظور التصريح أو التلميح بأنه ثمة «تصميم ذكي» مبدع وراء ظواهر الكون وتنوع الكائنات

العلم يتجه للعودة إلى الخالق الحكيم:

غير أن الاكتشافات العلمية التي توالت اعتبارًا من منتصف القرن العشرين، كانت نتائجها على عكس ما يشتهي دعاة الإلحاد، فكان كلُّ اكتشافٍ جديد يدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على أنَّ كل ما في الكون من مادة وأجرام سماوية وأحياء تحكمه قوانين وقواعد وضوابط، يدل العلم والعلم وحده أنها لا يمكن إلا أن تكون من تصميم حكيم خبير، وقد كان من نتائج هذه الاكتشافات أن ظهر في الغرب بشكل عام وفي أمريكا بشكل خاص تيارٌ علمي مناهض للمادية الإلحادية، يقوده عدد من كبار العلماء كلٌّ في اختصاصه، وراح أصحابه يُصدرون الكتب والأبحاث والدراسات والمقالات، التي يثبتون فيها بطرق علمية واعتمادًا على ما اكتشفه العلم الحديث، أنَّ الكون الذي نعيش فيه من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة تحكمه ضوابط غاية في الدقة والتنظيم والتناغم فيما بينها، يدل على تصميم مذهل في إحكامه ودقته، لا تخطئه عين العالِم المنصف.

الفرق بين الملحد والمؤمن بالله في الموقف من الكشوفات العلمية الجديدة

المؤمن بالله	الملحد
1. يجد في الاكتشافات أدلة جديدة على عظمة الله وقدرته الفائقة	1. يظن أنه كلما ازداد علمًا فهو أكثر استغناء عن الله
2. دافعه إلى الاكتشاف والبحث هو عبادة الله وعمارة الأرض	2. دافعه إلى الاكتشاف هو البحث عما يغنيه عن الإيمان
3. لا يستغرب من انسجام الكون وتناسقه فهو صنع الخالق البديع	3. يتعسف في تفسير الانسجام والتناسق بالمصادفة والعشوائية
4. لديه الإيمان ويبحث من باب زيادة العلم واليقين	4. يتجاهل الإجابات الموجودة ويبحث عن إجابات غير موجودة

من هذه الكتب كتاب (هل مات الإلحاد؟)، الذي صدر عام ٢٠٢١م، من تأليف الكاتب الأمريكي (إريك ميتاماكس)، الذي يقول في مقدمته إنه يجيب فيه على السؤال الذي طرحه غلاف مجلة التايم، الذي ذكرناه آنفًا، ويثبت بالأدلة والبراهين أنَّ العلوم الحديثة تدل على وجود الخالق الحكيم القدير.

ومنها كتاب (نظرة في العواقب: كيف تكشف كيمياء الحياة عن وجود تصميم وهدف من ورائها)، الذي صدر عام ٢٠١٩ م، من تأليف عالم الكيمياء البرازيلي (ماركوس أيبرلين)، الذي يفصح عنوان غلافه عن محتواه.

ومنها كتاب (العلوم الخفية: ما الذي لا يريدك بعض الملحدين أن تراه)، تأليف البروفيسور (إريك هيدين)، وقد صدر عام ٢٠٢١م، يتحدث فيه مؤلفه عن الضوابط المدهشة الموجودة في الكون، وعن محاربة الجامعات له شخصيًا لأنه كان يضمِّن مقرراته الجامعية العلمية مناقشة طلابه في سؤال هام هو: على ماذا يدل التصميم المذهل لضوابط الكون؟

وأهم هذه الكتب وأشهرها وأكثرها تأثيرًا وآخرها صدورًا: كتاب العالم الأمريكي (ستيفن مايز)، الذي صدر قبل أقل من عام من كتابة هذه السطور، والذي لخَّص فيه كاتبه أهم الاكتشافات الحديثة التي ردمت الهوّة المصطنعة بين العلم والإيمان، فأحدث ضجَّةً في الأوساط العلمية ما زالت قائمة حتى اليوم، وكان عنوان الكتاب: (عودة فرضية الإله: ثلاث اكتشافات علمية تُفْصِح عن وجود مُدَبِّر حكيم وراء الكون)، والدكتور مايز هو صاحب أشهر كتابين في نقد نظرية دارون، هما كتاب (شك دارون)، وكتاب (التوقيع في الخلية)، وفي كلا الكتابين ذكر التصميم ولم يذكر المصمم، ولكنه في كتابه الأخير (عودة فرضية الإله) كسر هذا الحاجز وذكر الله تعالى على غلاف الكتاب، وهو أمر نادر الحدوث من عالم كبير في بلاد الغرب، بل قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يُصرِّح فيها عالمٌ من وزن البروفيسور مايز على غلاف كتاب له أن العلم يؤدِّي للإيمان، وقد قفز الكتاب فور صدوره ليصبح أكثر الكتب مبيعًا على موقع أمازون، وأكثر الكتب العلمية مبيعًا في أمريكا.

وخلاصة الكتاب أن هناك ثلاث حقائق علمية حديثة أصبحت اليوم مؤكدة، تدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على وجود إلهٍ قادرٍ حكيم وراء تصميم الكون ووجود الحياة على الأرض، فما هي هذه الاكتشافات الثلاث الجديدة التي يتحدث عنها الكتاب؟

من أهم الحقائق العلمية الحديثة التي تدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على وجود إلهٍ قادرٍ حكيمٍ وراء تصميم الكون ووجود الحياة على الأرض: أن الكون المادي له بداية، وليس أزليًا، وأن الكون تحكمه ضوابط في غاية الدقة

أولاً: الكون المادي له بداية، وليس أزليًا:

هذا الاكتشاف، المدعوم بعلم الفلك الرصدي والفيزياء النظرية، يتناقض تمامًا مع مزاعم الملحدين الذين يزعمون أنَّ الكون أزلي وذاتي الوجود، فهو إذن لا يحتاج إلى خالق.

جدير بالذكر أن هذا الاكتشاف كان نتيجة لدراسة حركة المجرَّات من حولنا، فالكون يحتوي على مليارات المجرات، ومجرَّتُنا درب التبانة واحدةٌ منها، وهذه المجرَّات تتباعد عن بعضها باستمرار، أي إنَّ الكون يتوسع مع مرور الزمن، وقد أدت الدراسة الدقيقة لهذا التباعد إلى الاكتشاف المذكور، وأن المجرات التي تبتعد عن بعضها لما قام العلماء بحساب سرعتها ومواضعها وطريقة تباعدها، توصلوا إلى أنها كلها انطلقت من نقطة واحدة في لحظة واحدة هي بداية الكون، وأطلقوا على هذه الحادثة الكونية اسم (الانفجار العظيم)، وقد كانت الصور التي توصلت إليها ناسا مؤيدة لهذا الاكتشاف.

ثانيًا: الكون تحكمه ضوابط في غاية الدقة:

لقد أثبت العلم أنَّ الكون كلَّه من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة منضبطٌ بعددٍ لا يكاد يحصى من الضوابط، مستقلة عن بعضها، تحافظ على بقاء الكون واستمراره، وتجعل الأرض قابلةً لنشوء الحياة عليها، ولو اختلَّ مقدار أي ضابطٍ منها ولو بمقدار بسيط لأدى ذلك إلى اضطراب الكون، وتبعثر النجوم والمجرات، وانتشار مادتها بشكل عشوائي في الفضاء، ولاستحال وجود الحياة على كوكب الأرض، وذكر هذه الضوابط لا يتَّسع له المقام، ولكن نذكر أمثلة عنها:

* من الضوابط الكونية الدقيقة، **نسبة التوسع الكوني**: المذكور آنفًا، فقد توصل العلماء إلى أنه منضبط إلى درجة مدهشة مذهلة عجيبة يصعب تصورها، لأن أي تغير في تسارع تمدد الكون -حتى لو كان بنسبة ضئيلة لا تزيد على واحد مقسوم على مليار مليار- سيؤدي لو حصل زيادة أو نقصانًا إلى استحالة وجود الكون على الصورة التي نعرفها، فلو كان معدل توسع الكون أسرع مما هو عليه لتناثرت مكونات المادة في الفضاء بشكل يجعل من المستحيل أن تتمكن قوى الجاذبية لاحقًا من جمع شتاتها وتشكيل المجرات بنجومها وكواكبها، ولو كان توسع الكون أبطأ، لانكمشت كل المادة الموجودة في الكون بفعل قوة الجاذبية على بعضها لتشكل ثقبًا أسود هائلاً، ولما تشكلت المجرات.

* ومن الضوابط الكونية المدهشة، **مقادير القوى الكونية الأربع:** وهذا المصطلح يشير إلى ٤ قوى: القوة الأولى هي قوة الجاذبية التي نعرفها جميعًا، والقوة الثانية هي القوة الكهرومغناطيسية، وهي القوة التي تتجاذب بسببها الأجسام ذوات الشحنة الكهربائية المختلفة، وتتنافر الأجسام ذوات الشحنة الكهربائية المتماثلة، وهذه القوة موجودة على مستوى الذرات، والقوة الثالثة هي القوة النووية الكبرى، وهي القوة التي تمسك البروتونات الموجودة في نواة الذرة فتضمُّ بعضها إلى بعض لتبقى متماسكةً ملتصقةً بعضها ببعض، والقوة الرابعة هي القوة النووية الصغرى، وهي القوة التي تؤدي إلى النشاط الإشعاعي لبعض عناصر الذرة، وليس هذا مكان شرح هذه القوى ووظيفة كل منها، ولكن الذي يهمُّنا هو أن علماء الفيزياء يُجمِعون على أن مقدار كلِّ قوة من القوى الكونية الأربع التي بسطنا القول في وصفها، وكذلك نسبة كل منها إلى القوى الأخرى محسوبة ومضبوطة بدقة دونها موازين الذهب، ولو اختلفت قيمة أي من هذه القوى أو اختلفت النسب بينها بأدنى مقدار ممكن لما استقرَّ الكون، بل لما تشكَّلت الذرَّات والمادة أصلاً.

* ومن ضوابط الكون المدهشة المذهلة **خصائص الماء:** نعم، خصائص الماء، من اللزوجة والكثافة والتوتر السطحي والخاصة الشعرية ودرجة التجمد ودرجة الغليان والروابط الذرية الداخلية، وغيرها، هذه الخصائص مضبوطة بطريقة دقيقة مبهرة معجزة، لا يضاهيها في قيمها الدقيقة المناسبة للأدوار التي تقوم بها في قيام واستمرار الحياة أي عنصر أو مركب آخر

في الطبيعة، لدرجة أن عالمًا معروفًا اسمه (مايكل دينتون)، أصدر قبل عامين كتابًا كاملاً عن خصائص الماء، سماه (عجائب الماء)، بـيَّـن فيه بالأدلة العلمية القاطعة أنَّ خصائص هذا السائل الرائع الخارق مناسبة للحياة على الأرض بعدد مذهل من الطرق، ما كانت الحياة لتقوم على الأرض لو غاب أي منها، وهي طرق تبدأ من دور الماء في تكوين الكواكب، ومنها كوكب الأرض، ولا تنتهي بالدور الذي يقوم به الماء في الطبيعة، وفي تفاعل من التفاعلات الحيوية داخل الخلايا الحية، ومن ذلك التحكم في مناخ الكرة الأرضية، وحماية غلافها الجوي، وتأمين الغذاء للنباتات وضمان وصوله إليها، وعملية التركيب الضوئي، وعملية الأيض في جسم الإنسان، والمحافظة على حرارة جسم الإنسان، والمحافظة على تضاريس القشرة الأرضية من جبال ووديان وسهول، وأمور أخرى كثيرة لا يمكن بسط الحديث عنها في فقرة من مقال، بينما استغرق شرحها باختصار كتابًا كاملاً، ويكفي أن نورد ما خلص إليه الكاتب في خاتمة كتابه حيث يقول:

«فأنّى نظرَت تجدُ سِحرَ الماء الواهب للحياة، سواءً نظرت في السماء والكواكب والمجرات، أو نظرت في الأرض والأحياء والتراب والذرات، وأكثر ما يُدهشنا في سلوك الماء أن نرى خصائص مختلفة من خصائصه، تعمل معًا وبتناسق وتناغم عجيبين لتحقق أهدافًا وغايات حيوية محدودة ببساطة واختصار: لا يوجد في كل ما نعرفه من قصص وحكايا العلوم شبيه لحكاية الماء، إن وجود هذا العدد الهائل من الصفات الملائمة للحياة في ذاك الجزيء الصغير المؤلَّف من ذرة أوكسجين وذرتي هيدروجين هو أمرٌ لا يدانيه أيُّ تصور في أكثر قصص الخيال العلمي غرابة وخيالاً، ولا يمكن تجنب الحقيقة الناصعة بوجود تصميم وراء مزايا الماء».

> **العلم هو الذي يقول لنا: إن المعلومات والبرمجيات الموجودة في نواة كل خلية حية، لا يمكن أن يكون مصدرها ماديًا أو عشوائيًا، بل بلا أدنى شك هو مصدرٌ يتَّصف بالقدرة المطلقة على التصميم والإبداع والحكمة والتدبير**

ثالثًا: الكون مادة وطاقة، وشيء آخر:

وهذا الشيء الآخر لم يكن وجوده وأهميته في حسبان أحدٍ قبل منتصف القرن الماضي، وهو أنَّ كل خلية حية يوجد في نواتها برمجيات حاسوبية، فقد اكتشف العلماء عام ١٩٥٢م الحمض النووي DNA الذي يوجد في نواة كل خلية حية، فلما تعمَّقوا في دراسته تبين لهم أن هذا المركَّب العجيب، ليس مجرَّد ذراتٍ وجزيئات ومواد كيميائية، بل يحمل في طياته معلوماتٍ وبرمجياتٍ حاسوبية خارقة معقدة، مكتوبة برموز كيميائية، وهذه البرمجيات يقول عنها (بيل غيتس) مؤسس ومالك شركة مايكروسوفت أكبر شركة برمجيات في العالم: «إن الحمض النووي يشبه برنامجًا حاسوبيًا، ولكن تعقيده الشديد أكبر بكثير من أي برنامج كتبه بشر»، ويعلم كل عاقل علم اليقين أن البرمجيات المعقدة والمعلومات المرتبة ذات المعنى، لا يمكن أن يكون مصدرها عشوائيًا، بل لا بد أن يكون وراءها مصمم على درجة عالية من الحكمة والمعرفة، وحتى نقدِّر عظمة المصمم الحكيم في هذا الأمر، دعونا نضرب مثالاً بالخلية الحية للإنسان.

إن معظم خلايا الجسم البشري يبلغ متوسط قطرها ١٠ ميكرون، والميكرون هو جزء من ألف من المليمتر، ولكل خلية نواة في داخلها، ويتراوح قطر النواة ما بين ٥ إلى ٧ ميكرون، ويتوضع الحمض النووي داخل النواة، ويحمل الحمض النووي معلومات وبرمجيات تتألف من ثلاثة مليارات ومائتي حرف.

أي إنَّ كلَّ خلية بشرية تحتوي على مكتبة من المعلومات المرتبة والبرمجيات المعقدة تعادل ١٠ آلاف مجلد ضخم، كل مجلد منها يتألف من حوالي ألف صفحة، وهذه المعلومات والبرمجيات تقوم الخلايا بتخزينها ونقلها ونسخها وتدقيقها ثم استخدامها في مهام حيوية لا تقوم الحياة من دونها، منها تخزين صفات الكائن الحي الذي يحملها، فمثلاً: لون عيني الإنسان، وثخانة شعره، وسمك أظافره، وشكل أنفه، ومناعة جسمه، واستعداده لبعض الأمراض دون غيرها، ونبرة صوته، وبصمة عينه، وكل ما يتعلق به من صفات، ومنها تخزين وتشغيل البرمجيات اللازمة لتصنيع البروتينات، وكل ذلك مكتوب بدقةٍ خارقةٍ داخل هذا الحمض النووي العجيب، بواسطة رموز خاصة تشبه المعلومات والبرمجيات الحاسوبية.

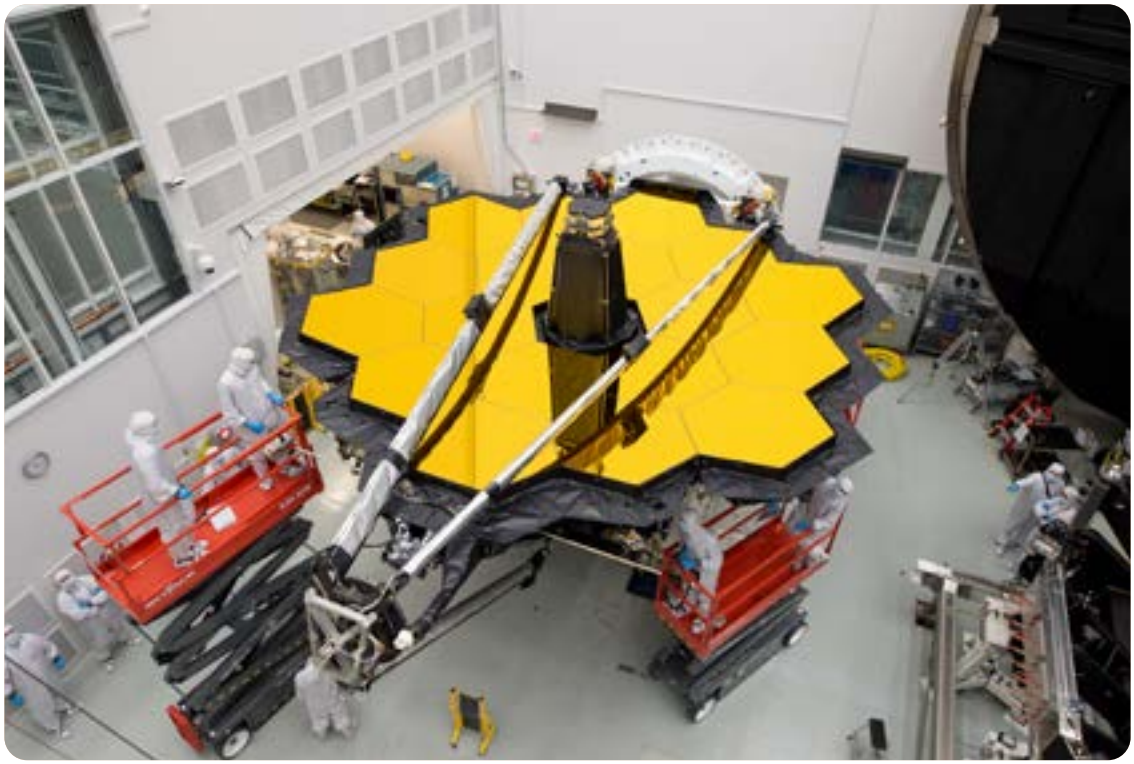

إن العلم هو الذي يقول لنا: إن هذه المعلومات والبرمجيات الموجودة في نواة كل خليةٍ حية، لا يمكن أن يكون مصدرها ماديًا أو عشوائيًا، لأنَّ المصدر الوحيد المعروف للمعلومات المرتبة الدقيقة ذات المعنى، لا يمكن أن يكون مصدرًا ماديًا، بل هو بلا أدنى شك، مصدرٌ يتّصف بالقدرة المطلقة على التصميم والإبداع والحكمة والتدبير.

ويخلُص الدكتور ماير إلى أن الأدلة العلمية تدل على وجود الخالق، وأن الكلام عن وجود تصميم وراء الكون والحياة هو حديث في صميم العلم وليس أمرًا فلسفيًا أو عقائديًا، أو بعبارة أخرى نرددها نحن المؤمنون دائمًا: العلم يدعو للإيمان.

العلم يؤدي إلى الإيمان، والكون كلُّه كتابٌ مفتوح، يُبصر فيه كلُّ عالم وكلُّ ذي لُبٍّ قُدرة الله وحكمته وتدبيره في كل سطر من سطوره، وقد أمرنا الله تعالى بأن ننظر فيه ونتدبره

لقوم يعقلون:

ما ذكرناه غيض من فيض، ولكنه يكفي لدحض المغالطة التي يرددها الملحدون، وهي أن العلم والإيمان نقيضان، بل إن العلم يؤدي إلى الإيمان، وإن الكون كله كتاب مفتوح، يبصر فيه كل عالم وكل ذي لبٍّ قُدرة الله وحكمته وتدبيره في كل سطر من سطوره، وقد أمرنا الله تعالى بأن ننظر فيه فقال سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وأخيرًا قد يسأل سائل: إذا كان العلم والدليل والبرهان يدل على الله سبحانه بهذا الوضوح، فلماذا يصر الملحدون على إلحادهم؟

الجواب يكمن في تتمة الآية السابقة وهي: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فمن اتَّبع هواه لن يستمع للآيات والدلائل والبراهين، وإن استمع فلا يفقه لأن هواه يغلب على عقله، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

أما أصحاب الفطرة والعقل، فلا يسعهم إلا أن يُردِّدوا مع أبي العتاهية:

وفي كل شيء له آية ❊❊❊ تدل على أنه واحدُ

توجيهات ربانية لسيّدات الطُّهر

د.عبد المعين الطلفاح (*)

المكانة الرفيعة لا تُنال بالنسب والقرابة، بل ينالها المسلم بالتقوى والعمل الصالح والقرب من الله، ولذلك خصَّ القرآن أمهات المؤمنين بجملةٍ من التوجيهات والإرشادات الكفيلة برفع منزلتهنَّ ومكانتهنَّ كما يليق بزوجات سيد ولد آدم ﷺ، ولتكون أيضًا هديًا لمن بعدهن من النساء المؤمنات في كل مكان وزمان

خيَّر الله تعالى أمهات المؤمنين بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وهذا ما يليق بأمهات المؤمنين، وعند ذلك خاطبهن الله تعالى بخطاب عظيم، أكّد فيه على خصوصية منزلتهنّ وأنهنّ لسنَ كأحد من النساء، فهن القدوات الطاهرات لغيرهن من نساء المسلمين، وأمرهن بجملة من التوجيهات لتكتمل أهليتهن لمنزلتهن الرفيعة، ومن ذلك: أن يقرنَ في بيوتهن ولا يتبرجنَ تبرج الجاهلية الأولى؛ وأرشدهنَّ سبحانه بعد ذلك إلى ما يفعلنه داخل بيوتهنَّ؛ فقال: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فهو يأمرهنَّ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويأمرهنَّ بطاعة الله ورسوله في كل أمر، ولا شك أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة داخلة في الأمر بطاعة الله تعالى، ولكنه سبحانه خصَّ هاتين العبادتين بالذكر لرفيع مكانتهما عنده سبحانه، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية في الإسلام، ثم بيَّن تعالى ما يحصل لنساء نبيه ﷺ إذا ما امتثلن أوامره؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والرجس هو الذنب والإثم، ويحصل التطهير منه بامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وقد أذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت، فكانت نساء رسول الله ﷺ في الدنيا من نسائه في الآخرة ﷺ.

خصَّ الله سبحانه الصلاة والزكاة بالذكر في توجيهه لأمهات المؤمنين لرفيع مكانتهما عنده سبحانه، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية في الإسلام

(*) دكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة قطر.

تطهيرهن بالمداومة على الصلاة:

أوّل طاعةٍ أمر الله بها نساء نبيه ﷺ: الصلاة، وبها يحصل لهنَّ التطهير من الذنوب والآثام، وبها يصلنَ إلى ما عند الله تعالى من الأجر العظيم، ولا شك أنَّ هذه الفضيلة للصلاة ليست خاصة بنساء رسول الله ﷺ، فبها يحصل تكفير الخطايا والذنوب لهنَّ ولغيرهن ممن أقامها، فالأمر لهنَّ ولغيرهنَّ من باب أولى، وقد قال ﷺ في فضلها: (إنَّ العبدَ إذا قام يصلي أُتِي بذُنوبِه، فوُضِعتْ على رأسِه أو عاتقِه، فكلّما ركَع أو سجَد تساقَطَتْ عنه)[1]، وقال ﷺ: (أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم، يَغتسلُ منه كل يوم خمسَ مَرّاتٍ، هل يَبْقَى مِن دَرَنِه شيءٌ؟) قالوا: لا يَبْقَى مِن دَرَنِه شيءٌ، قال: (فذلكَ مَثَلُ الصلواتِ الخَمسِ، يَمْحُو اللهُ بهِنَّ الخَطايا)[2]، وكان من وصية عمر رضي الله عنه لعمّاله: «إنَّ أهمَّ أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها؛ حفظ دينه، ومن ضيعها كان لـما سواها أضيَعُ»[3]، وذلك لأنَّ النبي ﷺ قال: (رأس الأمر الإسلامُ، وعموده الصلاةُ)[4]، وبعد أن أمر الله تعالى نساء نبيه ﷺ بإقام الصلاة؛ أمر رسوله ﷺ أن يأمر أهل بيته بها أيضًا؛ فقال له: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

البشارة بالغنى:

وكانت الطاعة الأخرى التي خصها الله بالذكر وأمر بها نساء نبيه ﷺ: إيتاء الزكاة، ولا شكَّ أنَّ المقصود الأول بالزكاة زكاةُ الأموال والصدقات، وهنا لسائلٍ أن يسأل: إنما نزلت هذه التوجيهات بخصوص نساء رسول الله ﷺ بعد أن شَكَونَ له الفقر، وطلبن منه زيادة النفقة؛ فمن أين لهنَّ المال الذي يبلغ نصابًا فتجب فيه الزكاة؟ قال البقاعي في ذلك: «وفي هذا بشارة بالفتوح، وتوسيعِ الدنيا عليهن، فإن العيش وقت نزولها كان ضيقًا عن القوت فضلاً عن الزكاة»[5]، وكأنه سبحانه يقول لهنَّ: إن امتثالكنَّ لما أمركنَّ الله تعالى سببٌ من أسباب الغنى، وقد دلَّ على ذلك كثير من الآيات والأحاديث أيضًا: قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، قال ابن كثير: «إذا أقمت الصلاة؛ أتاك الرزق من حيث لا تحتسب»[6]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقد حصل لنساء رسول الله ﷺ ما بشرهنَّ به الله تعالى؛ فصار يأتيهن المال الكثير، كان عمر رضي الله عنه يفرض لكل واحدة من زوجات رسول الله ﷺ اثني عشر ألف درهم، وكنَّ ينفقنه ويتصدقن به في سبيل الله تعالى، وإذا كان الله تعالى قد أمر نساء نبيه ﷺ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فغيرهنَّ مأمور بذلك من باب أولى نساءً كانوا أم رجالاً؛ لأن حاجتهم للتطهير من الذنوب والآثام أكثر، وهم على حصول الغنى بطاعة الله تعالى أحرص.

> **إذا كان الله تعالى قد أمر نساء نبيه ﷺ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فغيرهنَّ مأمورٌ بذلك من باب أولى نساءً كانوا أم رجالاً؛ لأنَّ حاجتهم للتطهير من الذنوب والآثام أكثر**

أمهات المؤمنين من أهل بيت النبي ﷺ:

وبعد أنْ وجههن الله بهذه التوجيهات الكريمة، أكَّد سبحانه على الغاية منها في هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فهو يريد لهن أن يكنَّ الطاهرات الكاملات البعيدات كل البعد عن الرجس والدَّنَس.

وجعل سبحانه لهنَّ منزلة خاصة في هذه الآية، فنصَّ على أنَّ نساء النبي ﷺ من أهل البيت، قال ابن كثير: «وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحدًا، إما وحده

(١) أخرجه ابن حبان (١٧٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٥).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٦١٦).
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١٥/٣٤٥).
(٦) تفسير ابن كثير (٥/٣٢٧).

على قول، أو مع غيره على الصحيح»[١]، ولا شك أنَّ زوجة الرجل من أهل بيته، بل الزوجة أولى أن تكون من أهل بيت الرجل؛ لأنها تلازم بيته دائمًا، قال ابن عطية: «والذي يظهر أن زوجاته ﷺ لا يخرجن عن ذلك البتّة، فأهل البيت: زوجاته وبنته وبنوها وزوجها»[٢]، وفي هذا ردٌّ على من قال: إن زوجات رسول الله ﷺ لسنَ من أهل بيته، وأن أهل بيته ﷺ هم الذين جاء الحديث ببيانهم، وهم فاطمة وعلي، والحسن والحسين ﷺ، وقول رسول الله ﷺ فيهم: (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا)[٣]، فهذا الحديث ليس فيه تخصيص لهم بذلك، كما أن الآية ليس فيها تخصيص زوجات رسول الله ﷺ بأنهنَّ وحدهنَّ أهل بيته ﷺ، بل كلُّ هؤلاء من أهل البيت، وكلهم قد أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا، فرضي الله عنهم أجمعين.

نزول القرآن والتشريعات في بيوتهن:

كان آخر سبب ووسيلة أرشد الله إليها نساء نبيه ﷺ ليفزن بالدار الآخرة والأجر العظيم أن قال لهن: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]، يأمر تعالى نساء نبيه ﷺ بهذه الآية أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله أي: القرآن، والحكمة: أي أحاديث رسول الله وسنته، وذكرُ ذلك يكون بشكره تعالى على هذه النعمة عليهن أولاً، بأن جَعَل بيوتهنَّ تتلى فيها آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، ويكون الذكر أيضًا بحفظ تلك الآيات وتعلمها، وتعلم أحكام الإسلام وتشريعاته من رسول الله ﷺ ثم بتعليمها الناس؛ ليكنَّ مشاركاتٍ في تبليغ القرآن وتواتره، والسنة وأحكامها، وقد امتثلت زوجات رسول الله ﷺ ذلك، ولم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون بعدهم يرجعون إلى أمهات المؤمنين في كثير من أحكام النساء والرجال، وغيرها من الأحكام.

كانت عائشة ﵂ أكثر من حفظ وروى عن رسول الله ﷺ من النساء، حتى إنها روت أحاديثًا عن رسول الله ﷺ لم يروها أحدٌ غيرها، وحفظت بذلك للأمة كثيرًا من أحاديثه وسنته ﷺ، حتى قال الحاكم: إنَّ ربع أحكام الشريعة نُقلت عنها ﵂[٤]، وكانت تليها في ذلك حفصة ﵂، وقد روى عنها أخوها ابن عمر أحاديث كثيرة، ثم كانت ميمونة ﵂ من المكثرات لرواية الحديث النبوي الشريف الحافظات له، وكذا كانت أم سلمة وصفية، وسودة وزينب وغيرهن، ﵃ جميعًا، امتثلن أمر الله لهنَّ قولاً وعملاً.

من إكرام الله لأمهات المؤمنين أن جَعَل بيوتهنَّ تتلى فيها آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، ليكنَّ مشاركاتٍ في تبليغ القرآن والسنة وأحكامها، ولم يزل الصحابة والتابعون يرجعون إلى أمهات المؤمنين في كثير من الأحكام والمسائل

مجالسهن مجالس كرامة وتقوى:

هذه الآية التي جاءت بالإرشاد الأخير لنساء رسول الله ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فيها أيضًا دلالة على اعتناء الإسلام واهتمامه بتوجيه أحاديث النساء عمومًا في مجالسهنَّ الوجهة الصحيحة النافعة، والارتقاء بهن عن أحاديث الدنيا، أو الأحاديث المحرمة، أو غير النافعة، وذلك يتماشى مع منهج الإسلام العام في توجيه المرأة، وتحرير طاقاتها الإبداعية، لتتحول من مخلوق ضعيف مجهود مقهور، إلى عنصر فعال ومؤثر في صناعة المجتمع الإسلامي.

وإن المطلع على أحاديث النساء في مجالسهن يجد تقصيرًا وبعدًا عما وجَّه الإسلام النساء إليه من تعلم آيات الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقد غلبت الأحاديث المحرمة كالغيبة ونحوها على مجالس النساء، لا سيما بحق أزواجهن. وصارت الصالحةُ منهنَّ لا تستطيع حضور تلك المجالس، ولا بد من توجيه حديث النساء في مجالسهن توجيهًا هادفًا، وذلك بحملهنَّ على ما فيه نفعهنَّ، فربما لم تجد تلك النساء ناصحًا ولا موجهًا، فدرجنَ على ما نشأنَ عليه. ورسول الله ﷺ لم يكن يترك توجيهًا، أو نصحًا بحق أمته عمومًا والنساء خصوصًا؛ إلا

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤١٠).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٤/٣٨٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٧١).
(٤) ذكره الزركشي في كتابه: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص (٥٩)، ولم يذكر إسناده.

ملامح خطاب القرآن لأمهات المؤمنين

١. تخييرهن بين الدنيا والآخرة

٢. وعدهن بالأجر العظيم على اختيار الآخرة

٣. التخويف من مضاعفة العذاب عند المخالفة

٤. الوعد بمضاعفة الأجر على الطاعات

٥. تأكيد مكانتهن في موقع القدوة والمسؤولية

٦. توجيههن بآداب الكمال والشرف والعفة

٧. أمرهن بما يطهرهن ويعلي شأنهن من العبادات

٨. تذكيرهن بالعلم والوحي الذي يتنزل ويتلى في بيوتهن

وأمر به، وقد سمع ﷺ مرةً فتاتين تغنيان، فقالت إحداهما: «وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ»؛ فوجهها رسول الله ﷺ وعلَّمها، وقال لها: (دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين)[1]، وكم من امرأة في مجتمعاتنا وجدت مَن نَصحها، وأخذ بيدها إلى طريق الصلاح؛ فصلُحت وأصلح الله على يديها الكثير.

قدوات لبقية النساء:

ودور الأزواج وأولياء الأمر في توجيه النساء إلى ما وجَّه الله إليه نساء رسوله ﷺ لا بد منه، فمن لوازم القوامة على النساء: نصحهنَّ وتعليمهنَّ، ولا يُفهم من توجيه أحاديث النساء إلى الأحاديث النافعة أن تكون مجالسهنَّ تلاوة القرآن، أو قراءة أحاديث رسول الله ﷺ فحسب، فليس المراد ظاهر النص دائمًا، وإنما مقتضاه أيضًا، ومن ذلك: أن تكون الأحاديث عن حسن تبعل المرأة لزوجها مثلاً، لا سيما مع من دَرَجْنَ للتو في الحياة الزوجية، وذلك من تلاوة القرآن والسنة، أو العمل على حل مشكلة بين زوجين، أو إرشاد امرأة منهن لكيفية حل مشاكلها الزوجية؛ فذلك من الأحاديث النافعة، أو يكون الحديث عن كيفية الرقي في تعليم الأولاد وتربيتهم، ومدى الاستفادة من خبرات بعض النساء الناجحات في ذلك، ومثل هذا الحديث من مقتضى القيام بالأمانة التي أمر بها الإسلام، والحديث عن الطبخ وترتيب البيت ونحو ذلك من الأحاديث النافعة أيضًا؛ إذا ما كانت بقصد التعليم، أو التحدُّث بنعمة الله تعالى، لا بقصد المفاخرة والتكبر، ولربما كان في الحديث عنها تعليمًا لغيرهنَّ من النساء ممن بدأن حياة زوجية جديدة، ويكون ذلك من التعاون على البر والتقوى.

ولتعلم النساء أن الحديث إذا ما كان عن الوقوف على معنى آية من كتاب الله تعالى أو تفسيرها، أو تطبيقًا لسنة من سنن رسول الله ﷺ؛ خير من قراءة آية أو حديث دون فهم معناهما، ذلك أن القرآن نزل للتدبر، والتدبر يقتضي الفهم ثم العمل، وسنة رسول الله ﷺ لا بد أن تطبق، ولا يمكن أن تطبق كما أراد الله إلا بعد الوقوف على معانيها، وبذلك يسود الإسلام حياتَنا الخاصة والعامة، وتكون أحكامُه أحاديثَ مجالسنا، نساءً ورجالاً، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٧).

وحدة الأمّة بين التوافق والتراحم

د. إبراهيم الحسون(*)

الأمة اليوم بحاجة إلى البحث عن الحلول والعلاجات للمشكلات والأمراض التي يعاني منها واقعها المتردي أكثر من أي وقت مضى، وذلك أن سهام الأعداء استثمرت في خلافاتها وعلاقاتها، وبالرغم من الجهود المبذولة في رص صفوفها وجمع كلمتها ما زالت بحاجة للمزيد من الاستنارة بنور الوحي والتجرد لتوجيهاته والتخلص من الحظوظ والمكاسب، وهذا المقال يسلط الضوء على جانب تربوي مهم في ذلك

مدخل:

بلغت كثرة الآلام وشدتها بأمتنا مرحلة كادت تفقد الإحساس بها، والتعايش مع هذه الآلام صار أمرًا واقعًا كما يتعايش المريض مع المرض المزمن، لكن بعض هذه المصائب يتجاوز فيها الألم العتبة التي تعوَّد عليها الناس، وفي ذروة الألم يأتي متألم ويصرخ: لو توحَّدنا لما وصلنا إلى ما نحن فيه من الذل والهوان!

ويتكرر هذا النداء ويعلو صوته ليتحول إلى مؤتمرات أو تجمعات تقام بغية التقريب بين تيارات الأمة وجماعاتها، للوصول إلى توافق في المسائل المتنازع عليها، على أساس أن وجود هذا التوافق شرط لتحقق وحدة الأمة، وبعد محاولات البحث عن هذا التوافق تصل العديد منها لنتيجة متكررة، وهي أن يتمسّك كل ذي رأي برأيه وتنفضّ هذه المحاولات بعداوات وخصومات أشدّ من تلك التي سبقت الاجتماع، وهكذا يتكرر الأمر كلما فجعت الأمة بمصيبة تهز وجدان أبنائها.

الاختلاف سنة كونية في البشر:

هنا يأتي سؤال: هل الاختلاف أمر سنني لازم للبشر؟ أم أنه طارئ والأصل التوافق بينهم؟ وهل كانت أمتنا الإسلامية في أيام مجدها وعزتها مُتفقة من كل وجه؟

تحاول هذا السطور تسليط الضوء على هذه الأسئلة في إطار مفهوم وحدة الأمة.

(*) دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، رئيس مجلس أمناء جامعة المعالي.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. قال ابن عاشور: «والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله: ﴿مختلفين﴾، واللام للتعليل لأنه لما خلقهم على جِبِلَّةٍ قاضيةٍ باختلاف الآراء والنزعات وكانٍ مريدًا لمقتضى تلك الجبلة وعالمًا به كما بيناه آنفًا؛ كان الاختلاف علة غائية لخلقهم»[١].

ويقول في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]: «المعنى: لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.

و(لو) تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها. فالمعنى: لكنه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متأثرة ومنفعلة بمؤثرات التفاوت في إدراك الحقائق فلم يتواطؤوا على الإيمان، وما كان لنفس أن تؤمن إلا إذا استكملت خلقة عقلها ما يهيئها للنظر الصحيح وحسن الوعي لدعوة الخير ومغالبة الهدى في الاعتراف بالحق»[٢].

لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح، لكنه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متفاوتة في إدراك الحقائق فكان منهم المؤمن وكان منهم الكافر

وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «تفرَّقتِ اليَهودُ على إحدى وسبعينَ فرقة أو اثنتين وسبعينَ فرقةً، والنَّصارى مثلَ ذلِكَ، وتفترِقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً»[٣].

تفيدنا هذه النصوص أن الاختلاف أمر واقع في بين البشر عمومًا فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، سئل مالك رحمه الله عن هذه الآية فقال: «خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضًا قوله: خلقهم فريقين، فريقًا يرحمه وفريقًا لا يرحمه»[٤].

من رحمة الله تعالى أن استطاع علماء الإسلام التمييز بين الخلاف السائغ من قبيل التنوع أو الاختلاف الذي أعذرت الشريعة به، وبين الخلاف المذموم الذي يؤدي لفتح باب الأهواء والانحراف عن الصرط المستقيم

ووقوع الاختلاف في أمة محمد ﷺ على وجه الخصوص كما سيأتي بيانه أمرٌ مشهود، فهل كل اختلاف مذموم؟ وهل يكون سعيُنا للتوافق إدارة صحيحة لهذا الاختلاف والوصول به إلى عز الأمة؟

أخبرنا النبي ﷺ أنَّ الاختلاف سيقعُ في أمته كما في حديث الافتراق المذكور، نظير ما وقع في أمتي اليهود والنصارى، وأن هذا الاختلاف أمرٌ مذموم لأنه حيدة عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ووصفت الفرق المخالفة بأنها في النار.

وفي الوقت نفسه اختلف العلماء في أمتنا منذ عهد الصحابة، فما أكثر المسائل التي تجد فيها لعائشة رأيًا مخالفًا لابن عمر، وقد يُخالف ابنُ عباس من هو أعلم منه، وكذلك وقع بين التابعين، والخلاف بين العراقيين والحجازيين قديم، حتى ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة وغيرها، والحوارات والخلافات بينها وفي داخل كل منها مستمرة بما يمكن الجزم أنه لن ينتهي إلى يوم القيامة.

أنواع مقبولة من الاختلاف:

وهذا الأخير يختلف عن الخلاف الذي قبله، فالخلاف المذموم حاصل قدرًا وغير مقبول شرعًا، أما الاختلاف بين علماء الإسلام المعتبرين فهو حاصل قدرًا ومقبول شرعًا، لأن كثيرًا منه اختلاف

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/١٨٩-١٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٩٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤٠). وقد بدأت بوادر الاختلاف مبكرًا من خلال اختلاف الموقف من مسائل الدين في المسائل العقدية وأصول الاستدلال بالقرآن والسنة والموقف منهما.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٢/٥٦٤).

سائغ لا مجال للهوى فيه، لتقدم الفضل لأهله، ولشهود أهل العلم لهم بالمكانة والصدق، وأسبابه معروفة فيما يتعلق بوجود النص في المسألة وثبوته وقطعية دلالته ... إلى غير ذلك من الأسباب، وكثير منه من قبيل اختلاف التنوع، وإلى هذا ينصرف قول الإمام أحمد لما قال لمن ألف كتاب الاختلاف: «سَمِّه كتاب السعة»، وقول عمر بن عبدالعزيز: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحدًا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يُقتدى بهم، ولو أخذ رجلٌ بقول أحدهم كان في سعة»[١]. وهذا كما قال القاضي إسماعيل: «إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن يكون توسعة أن يقول الإنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا. ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا». قال ابن عبد البر معلقًا: «كلام إسماعيل هذا حسن جدًا»[٢].

والخلاف السائغ يقتضي أمورًا منها: ألا يُنكَر على من ذهب إلى أحد الأقوال، ولا يرمى بالتشدد أو البدعة، وكذلك تُصَحَّحُ الآثارُ المترتبة على فعل المخالف، وقد يفتي العالم بالقول الآخر إذا تعذر العمل بقوله، أو ترتب على قوله -لظرف من الظروف- عَنَتٌ كبير، واستحباب الأخذ بأحوط القولين إن كان الخلاف قويًا لم يتبين فيه الرجحان[٣].

ومن رحمة الله تعالى أن استطاع العلماء التمييز بين ما هو سائغ من قبيل التنوع أو الاختلاف الذي أعذرت الشريعة به وبين ما هو مذموم يؤدي لفتح باب الأهواء والانحراف عن الصرط المستقيم، والحديث في هذه المقالة عن الخلاف بين أهل السنة لا الخلاف مع المبتدعة الخارجين عن منهجها.

يزخر التاريخ الإسلامي بنماذج رائعة من هذا التصنيف الدقيق لأنواع الاختلاف وكيفية إدارته ورأيناه في أوضح صوره بين الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم رغم الاختلاف في الاجتهاد بينهم، لكن ذلك لم يمنعهم من حفظ كلٍّ منهم للآخر مكانته، بل كانت لديهم عبقرية في إدارة هذا الخلاف عندما يتفقون على عبارات توجِّه التلاميذ إلى البعد عن التعصب والتجرُّد للحق[٤].

السعي للتوافق والوصول للحق جزء من التكليف الإلهي الذي أُمرنا به، لكن هناك قدر كبير من التوافق لا يمكن أن يحصل في أمتنا نظرًا لاختلاف طبائع البشر وتفاوت الأفهام، فضلاً عما يعزز هذه الأمور من شهوات ومسوغات نفسية وأخلاقية

هل التوافق ممكن في كل الأمور؟

لا شك أنَّ السعي للتوافق والوصول للحق جزء من التكليف الإلهي الذي أُمرنا به وأن البقاء في الاختلاف والتسليم له تخلُّفٌ عن أوامر الوحي، لكن هناك قدر كبير من التوافق لا يمكن أن يحصل في أمتنا نظرًا لاختلاف طبائع البشر وتفاوت الأفهام فضلاً عما يعزز هذه الأمور من شهوات ومسوغات نفسية وأخلاقية.

وطريق السير نحو التوافق قد تطول، وقد لا نصل للتوافق التام لما تقدم من أسباب، وحيث لم يكلفنا الشرع بما لا نطيق فقد أرشدنا إلى منهج إضافي في هذا الطريق يحفظ للأمة وحدتها وعزَّها، يلخِّص هذا المنهجَ حديثٌ من أعظم ما نزل من الوحي ولا تكاد تجد مسلمًا لم يسمع به أو حتى يحفظه، فقد أخرج الشيخان عن النُّعْمَان بن بَشِير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنينَ فِي تراحمِهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثلِ الجسد إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسده بالسهر والحمى»[٥].

يعطينا هذا الحديث المنهج الذي ينبغي أن تتبعه أمة الإسلام حتى تقترب أشد الاقتراب من الشبه بالجسد الواحد، ولا يمكن أن تجد عبارة تعطيك معنى الوحدة كما في الجسد الواحد. هذا المنهج بشكل محدد ودقيق عبر عنه الحديث بلفظتي

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٠١/٢) برقم (١٦٨٩).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٩٠٦/٢) تحت الرقم (١٦٩٩).
(٣) ملخص من مقالة: ست وقفات مع الخلاف السائغ، للدكتور معن عبد القادر، العدد الثامن من مجلة رواء.
(٤) ولهم في ذلك كلام كثير، ومنه: قول أبي حنيفة: «إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي»، وقول مالك: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة؛ فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة؛ فاتركوه»، وقول الشافعي: «أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لم يَحِلَّ له أن يَدَعَهَا لقول أحد»، وقول ابن حنبل: «من ردَّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهو على شفا هَلَكَة».
(٥) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

التواد والتراحم بين الأمة، فإنه لم يذكر هنا التوافق ولا حتى أشار إليه، بل شرح الحديث معنى الجسد الواحد بأن قال: (إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) لأن عين الرحمة أن تشارك أخاك ألمه ومصابه. والأمر إذا وصل إلى هذا الحد فإنه لابد أن يطرد من الذهن مفهوم الكيد والتشفي والصراع بين أبناء الأمة فإنهما لا يمكن أن يجتمعا في وقت واحد.

عين الرحمة أن تشارك أخاك ألمه ومصابه. والأمر إذا وصل إلى هذا الحد فإنه لا بد أن يطرد من الذهن مفهوم الكيد والتشفي والصراع بين أبناء الأمة فإنهما لا يمكن أن يجتمعا في وقت واحد

الرحمة أساس هذا الدين:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك «لنت لهم»، لتُبَّاعك وأصحابك، فسَهُلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمَه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتَّبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم»[(١)].

لقد جعل الله الانفضاض وتفرق الكلمة مقرونًا بغلظة القلب لو أنها وجدت. وقابل هذه الغلظة بالأصل الذي يجب أن تبنى عليه الدعوة إلى الله والذي جُبل عليه النبي ﷺ من اللين وسمو الأخلاق التي إنما كانت برحمة الله لأنهما السبيل للاجتماع على كلمة النبي ﷺ، فاقتران الالتفاف حول النبي ﷺ بالرحمة في بداية الآية إشارة عظيمة لأهمية هذا المنهج في الاجتماع، ثم تتابع الآية في نفس السياق بإرشاد النبي عليه والصلاة والسلام بالعفو والاستغفار ومشاركة أصحابه في الرأي.

ثم امتن الله على المؤمنين بأن أرسل فيهم النبي ﷺ، وبين أن مناط المنة في وصفه عليه الصلاة والسلام بالرأفة والرحمة بالمؤمنين بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة:١٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

قرنت الآية الكريمة بين وصفين للمؤمنين فهم أعزة أشداء على أعداء هذا الدين لكنهم في الوقت نفسه رحماء بينهم، لعل وصفَ الرحمة هنا هو الذي اقتضى وحدة الصف والعزة والشدة على العدو، بل إن هذا القيد وهو الوصف بالرحمة تقدم في الذكر على كثرة السجود والركوع لأهميته.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد ١٧-١٨].

قال ابن عاشور: «والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩]»[(٢)].

قال الألوسي: «﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى وهما أصلان عليهما مدار الطاعة وهو الذي قاله بعض المحققين: الأصل في التصوف أمران: صدق مع الحق، وخُلُق مع الخَلق»[(٣)]، فالرحمة بالمخالف من أهل السنة وفي التعامل معه هي مقتضى الإيمان برحمة الله، وسبب نيلها.

وصف الله المؤمنين بأنهم رحماء بينهم، ولعل وصفَ الرحمة هنا هو الذي اقتضى وحدة الصف والعزة والشدة على العدو، بل إن هذا الوصف تقدم في الذكر على كثرة السجود والركوع لأهميته

(١) تفسير الطبري (١٨٦/٦).
(٢) التحرير والتنوير (٣٦١/٣٠).
(٣) تفسير الألوسي (٣٥٦/١٥).

الفرق في التعامل مع الخلافات بين منهج التوافق ومنهج التراحم

منهج التوافق	منهج التراحم
يسير في مستوى الخلاف يحدث تقاربا جزئياً لا يمكن الوصول إلى توافق تام من واجبات المؤمنين	يسمو فوق الخلاف يحدث تقارباً كاملاً التراحم يحصل بشكل تام من صفات المؤمنين

صور الاختلاف والافتراق وكيف تم التعامل معها:

وقع الاختلاف في الأمة وأخذ كل ذي رأي برأيه حتى وصل الأمر لظهور الافتراق والجماعات والمذاهب، لكننا نجد في تاريخنا نموذجين من إدارة هذا الاختلاف والافتراق يستحقان التأمل:

النموذج الأول حفظ للأمة وحدتها وقوتها وعزها بين الأمم، والنموذج الثاني تسبب في انهيار كل ما سبق فأصبحت كما قال ﷺ: (كغثاء السيل)[1].

أما الأول: فهو ما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم من الرحمة والحوار والتنازل عند الاختلاف ولعل من أوائل هذه المواقف ما حدث عقب وفاة النبي ﷺ واختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في مسألة الخلافة حيث نجد صورة مشرقة في طريقة تعامل الطرفين، فلم يذهب أصحاب الرأي الراجح للنكاية بالطرف الآخر، ولم يعاند أصحاب الطرف المرجوح أو يشقوا صف الجماعة نكاية بالآخرين، بل تعامل الجميع بطريقة حفظت المكانة والحقوق؛ لأنَّ الكل عرف أن الآخر إنما أراد الحق.

ومن أعظم تلك المواقف أيضًا ما تظهر به الرحمة وحفظ المكانة والأخوة حتى بعد حصول الاقتتال؛ فبعد موقعة الجمل لم يظهر من تعامل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا حفظ مكانة زوج النبي ﷺ على الرغم من وقوع القتال بين جيشيهما، فعن عمرو بن غالب أن رجلاً نال من عائشة عند عمَّار، فقال: «اغْرُب مقبوحًا منبوحًا، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟!»[2].

ومن ذلك ما حصل بين معاوية رضي الله عنه وملك الروم؛ حيث طمع ملك الروم في غزو بلاد المسلمين بعد الخلاف الذي حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما أجمعين، «فلما رأى ملكُ الروم اشتغالَ معاويةَ بحرب علي تَدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة، وطمع فيه، فكتب إليه معاوية: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيّقنَّ عليك

(١) أخرج أبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها)، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهَنَ)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا، وكراهية الموت).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٨٨). أمره بالغروب والاختفاء، والمقبوح: المُبعَدُ الملعون. والمنبوح: مَن يُطرَدُ ويُرَدُّ.

الأرض بما رحبت! فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفَّ، وبعث يطلب الهدنة»[١].

أما النموذج الثاني - والذي تكرر في الأزمنة التي انحدرت فيها الأمة حضاريًا- فقد أدى إلى ضعفها، وانهيار بعض ممالكها ودولها، كما حدث بين أمراء المدن في نهاية الدولة العباسية، وبين ملوك الطوائف في الأندلس قبيل سقوطها، وعلى قدر ما نجد من الرحمة وحفظ المقامات بين الصحابة، نجد هنا كيدًا وعداءً وصل إلى حد الاستعانة بالعدو غير المسلم على الأخ المسلم، واستباحة لدمه وعرضه بذلك.

ولم يقتصر الأمر على جانب السلطة والحكم، بل وصل إلى ساحة العلم والدعوة إلى الله، فقد استعدى فريق من المنتسبين للعلم والدعوة السلاطين والحكام على فريق آخر لمجرد الاختلاف الفكري، فكم عالم تم تهجيره أو تغييبه في ظلمات السجون بسبب وشاية مخالفيه فيه. ومن ذلك تعرض الإمام مالك ﷺ للأذى والبلاء بسب فتواه في البيعة بيمين الطلاق، واتهام الشافعي ﷺ بالرفض من قبل خصومه، وتعذيب الإمام أحمد ﷺ وسجنه بسبب امتحان المعتزلة له في فتنة خلق القرآن، ولم يرحموا شيبته ولا مكانته العلمية حتى جاءه الفرج من الله. ومن عجائب شيوع البغي ما ذكره القاسمي: «تقرأ في ترجمة علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووي، أنه مع زمانته[٢]، وكونه صار جِلْس بيته[٣]، يتأبط دائمًا وثيقة أحد القضاة بصحة إيمانه وبراءته من كل ما يُكَفِّرهُ، ولقد أريقت دماءٌ مُحَرَّمَةٌ، وعذبت أبرياء بالسجون والنفي والإهانات باسم الدين، وروعت شيوخ وشبان أعوامًا وسنين»[٤].

نماذج من التراحم بين العلماء عند الاختلاف:

في المقابل نجد في تاريخنا مواقف سامية تصور لنا التراحم بين العلماء المختلفين، فيروي الذهبي موقفًا صعبًا حصل مع الإمام الحافظ وكيع بن الجراح كادت نفسه تذهب فيه بسببه، وظهر في هذه الحادثة موقفٌ سامٍ من سفيان بن عيينة في إنقاذ وكيع من الهلاك.

فقد أخطأ وكيع برواية حديث منكر منقطع الإسناد، وظنَّت قريش في هذا الخبر غَضًا من منصب النبوة، فاجتمعوا لصلبه ونصبوا له خشبةً، فجاء سفيان بن عيينة وقال لهم: «اللهَ اللهَ، هذا فقيه العراق وابن فقيهه، وهذا حديثٌ معروف».

قال سفيان: «ولم أكن سمعته، إلا أني أردت تخليص وكيع»، وكلم سفيانُ أميرَ مكة في وكيع، فأمر بإطلاقه[٥].

وقال ابن القيم: «ما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله رُوحه، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: «وددت أني لأصحابي مثلَه لأعدائه وخصومه»، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذىً له، فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم، وقال: «أنا لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه» ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[٦].

واستفتي السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون شيخَ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموه في حق شيخ الإسلام، وأخرج السلطان من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله.

> **إنَّ التراحم بين أبناء الأمة هو السبيل الأمثل لوحدتها، وهو يقتضي حصر الخلاف في المكان الذي يجب أن يبقى فيه**

قال شيخ الإسلام: «ففهمت مقصوده أن عنده حنقًا شديدًا عليهم، لما خلعوه، وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي، وسكَّنت ما عنده عليهم».

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٠).
(٢) مرضه المزمن.
(٣) لا يبرحه ولا يفارقه.
(٤) الجرح والتعديل، للقاسمي، ص (٤٠).
(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء (٩/١٦٠-١٦٣).
(٦) مدارج السالكين (٣/٩٥).

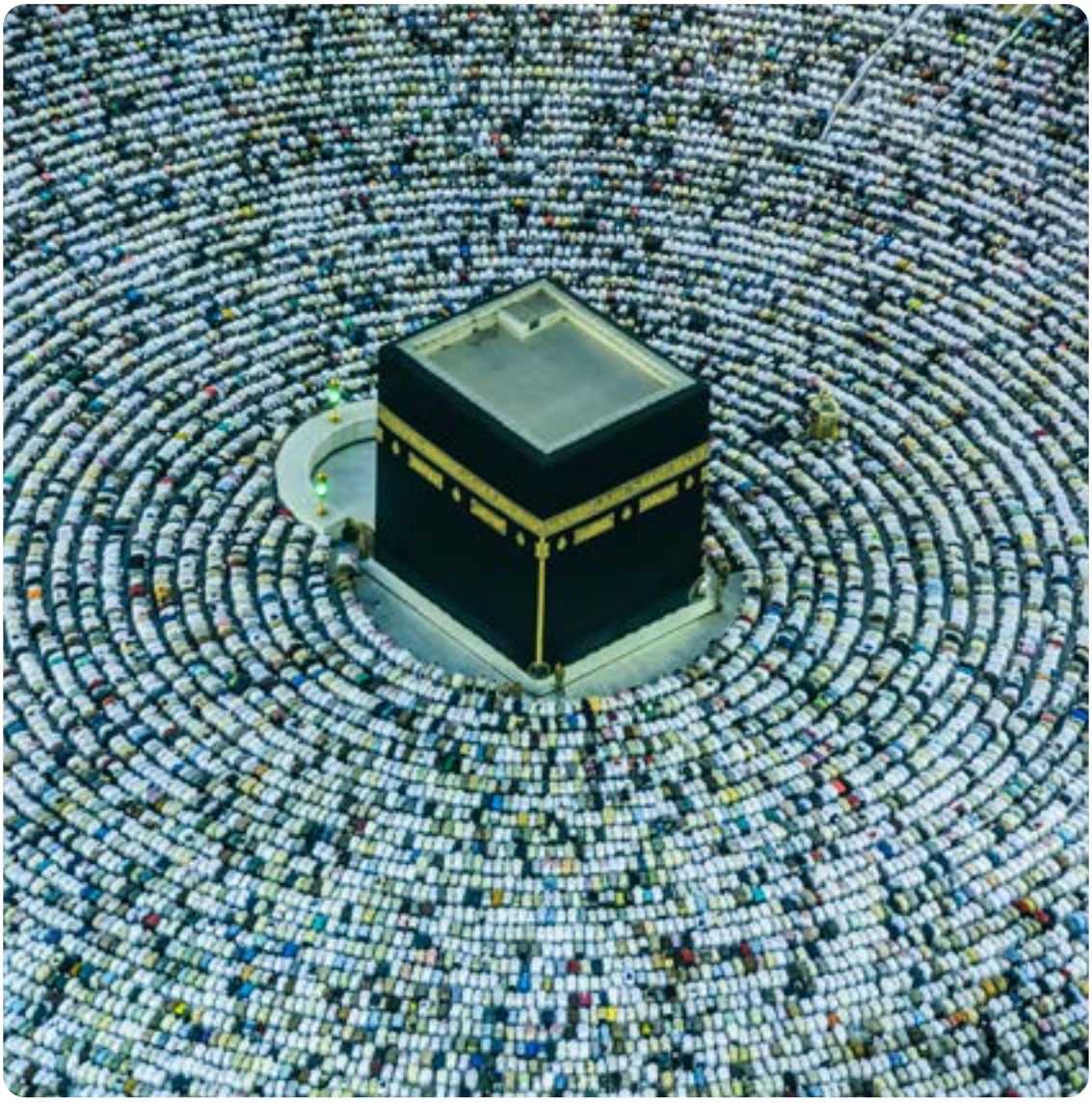

قال: فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف -قاضي المالكية- يقول بعد ذلك: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبق ممكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»[1].

هذه النماذج الرائعة هي التفسير الحقيقي لمعنى الجسد الواحد وهو تجسيد لمعنى (رحماء بينهم).

الخلاصة:

إنَّ التراحم بين أبناء الأمة هو السبيل الأمثل لوحدتها، وهو يقتضي حصر الخلاف في المكان الذي يجب أن يكون فيه، وأنه لا ينبغي أن يُصَدّر الخلاف واجهة لأمور خفية تحمل في ثناياها الحسد والضغينة، وإنما قال كل برأيه لأنه يظن أنه بذلك يرضي الله ويرجو ثوابه، ومما لا شك فيه أن مرضاة الله بعيدة كل البعد عن الكيد للمخالف خارج نطاق الحوار العلمي القائم على الحجة والبرهان.

هكذا كان علماؤنا ودعاة الإسلام في الماضي المشرق من تاريخ الأمة وهكذا حفظت لنا صفحات السير مواقفهم هذه لتكون لنا منارات نهتدي بها تخرجنا من ظلمات الجهل والتخلف والانشغال بما لا ينفع إلى شمس الحضارة وقيادة البشرية.

(١) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، لابن عبد الهادي، ص (٢٨٩-٢٩٩).

كيف بلغ الأنصار مكانتهم الرفيعة؟

م. معاوية مروان الجندي (*)

لكلِّ جماعةٍ صفاتٌ تُميِّزها عن غيرها، وميزاتٌ تنفرد بها عمَّن سواها.. وقد امتازت الجماعة الَّتي احتضنت دعوة النَّبيِّ ﷺ بصفاتٍ ومناقب نفيسة جعلت لهم مقامًا عاليًا ومكانة رفيعة في الإسلام، إنَّهم الأنصار؛ مَن أحبُّوا النبي ﷺ وفدوه بدمائهم، وبذلوا له البلاد والأموال والدِّيار، وقدَّموا أروع نماذج التَّضحية والإيثار، فرَحِم الله رجال الأنصار ونساء الأنصار.

مدخل:

أبقى الله سبحانه وتعالى ذِكر الأنصار وأعلا مكانتهم وأعطاهم خصوصيةً ليست لغيرهم من عموم المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضُ الأنصار)[1]، وفي حديث آخر قريب منه روى البخاري ومسلم عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الأنصارُ لا يحبُّهم إلا مؤمن، ولا يُبغضهم إلا منافق، فمن أحبَّهم أحبَّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[2]، وقد أفرد البخاري لهذين الحديثين بابًا أسماه: «حبُّ الأنصار من الإيمان».

وفي هذه المقالة تطواف مع بعض صفاتهم التي مدحها الشرع وبلغوا بها مكانتهم الرفيعة رضي الله عنهم.

خصائص الأنصار رضي الله عنهم:

امتاز الأنصار رضي الله عنهم بعددٍ من الخصائص، ومن أهمها:

١- الإيمان العميق والتسليم لله:

ما لبث الأنصار أن صدَّقوا بنبوّة الرسول ﷺ من أوّل عرضها عليهم، آمنوا قولاً وعملاً وفكرًا وسلوكًا، وانعكس ذلك على تصرفاتهم، فكانوا يُسلِّمون للرسول ﷺ تسليمًا تامًا في جميع أمورهم، ومن ذلك استبدالهم للأخوة الإيمانية الصادقة بالعداوة

(*) تربوي وكاتب.

(١) أخرجه البخاري (١٧) و(٣٧٨٤) ومسلم (٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥).

القديمة التي كانت بين الأوس والخزرج بعد أن كادت تفنيهم حربُ بُعاث، والانطلاق بحماس إلى الدعوة لدين الله بين قومهم، وتهيئة بلدهم لتصبح موطنًا للدعوة ومنطلقًا ومُهاجَرًا للمستضعفين من المسلمين.

وتنقل كتب السيرة قصصًا من التصديق والتسليم تبعث على الدهشة والعجب. من ذلك ما رواه جابر بن عبدالله ﷺ في قصة بيعة العقبة الثانية، حيث قدم وفد منهم إلى رسول الله ﷺ في موسم الحج ليبايعوه فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة)[1]، فقاموا إليه فبايعوه، وهم يعلمون أن قريشًا -والعرب من خلفها- ستنقلب عليهم وتحاربهم، بايعوه على أن يكون قائدَهم، ويكونوا طوعَ أمره، يسالمون من سالم ويحاربون من حارب، بايعوه على بذل النفس والنفيس في سبيل دعوته، وكل ذلك بمقابل وعد منه ﷺ بأن لهم الجنة.

إن القارئ لا ينتهي عجبه من هذا الموقف، فهو عليه الصلاة والسلام لم يعدهم بمكانة أو زعامة وهم لم يطلبوها -رغم أن غيرهم طلبها[2]- بل وعدهم بأن يدخلهم الله الجنة فحسب، وهو وعد يمكن أن نصنفه بمصطلحات اليوم بأنه هدف غير قابل في المنظور الدنيوي، لكنها رحمة الله تعالى بهم وفضله عليهم حيث وقر الإيمان في قلوبهم وتمكن من جوارحهم، فاستجابوا دون تردد فحازوا قصب السبق والشرف الرفيع.

وفي هذا اللقاء لم يطلبوا من الرسول ﷺ سوى التثبُّت مما سيفعله إذا انتصرت الدعوة وانتشر الإسلام، حيث قال أبو الهيثم بن التيهان ﷺ: «يا رسول الله إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها -يعني: اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعَنا؟» فتبسم النبي ﷺ ثم قال: (بل الدَّمَ الدَّمَ والهَدْمَ الهَدْمَ، أنا منكم وأنتم مني، أحارِبُ مَن حَارَبتم وأُسالِم مَن سَالمتم)[3]، فأعظِم بهذا الإيمان والتصديق والتسليم لأمر الله ورسوله، ما أعظمه.

إن القارئ لا ينتهي عجبه من بيعة الأنصار، فالرسول عليه السلام لم يعِدهُم بمكانة أو زعامة، وهم لم يطلبوها، بل وعدهم بأن يُدخلهم الله الجنة فحسب إذا نصروا الدعوة، فاستجابوا دون تردُّد فحازوا قصب السبق والشرف الرفيع

٢- البذل والإيثار:

كان من أول الأعمال التي ابتدأ الرسول ﷺ بها تأسيس المجتمع المسلم ونواة الدولة الإسلامية في المدينة بناء المسجد، وهنا بذل بنو النجار الأرضَ التي شيَّد عليها رسول الله ﷺ مسجده في سبيل الله، ورفضوا أخذ ثمنها.

وكان الأنصار يتنافسون فيما بينهم على إنزال المهاجرين الذين يقدُمون إلى المدينة في بيوتهم، ساعين في خدمتهم وتأمين احتياجاتهم، باذلين لهم أموالهم وأوقاتهم، في أمثلةٍ من البذل والعطاء قلما نجد مثلها في غير تاريخنا الإسلامي، وقد أصَّل رسول الله ﷺ تلك المعاني في نفوس الأنصار بأن جعلها نبراس الأخوة في الله، حين آخى بين الأنصار والمهاجرين، وكان الأنصار على مستوى هذه المسؤولية، فواسوا إخوانهم المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل»، قال: (لا)، فقالوا: «تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، فقالوا: سمعنا وأطعنا»[4]، فأصبح الأنصاريُّ ونزيله المهاجر أخوين أخوَّةً إيمانية وقلبية وفعلية وصلت إلى حد التوارُث بينهما، وبقي الأمر كذلك حتى نُسخ أمر التوارُث وبقيت الأخوة. لم يكن فعل الأنصار نابعًا من كرم مطبوعٍ في نفوسهم فحسب، أو نخوةٍ عربيةٍ جُبلوا عليها، أو سلامةٍ في فطرتهم،

(١) أخرجه أحمد (١٤٤٥٦).
(٢) من ذلك اشتراط قبيلة كِندة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الملك من بعده ليؤمنوا به. ينظر: السيرة النبوية، لابن كثير (١٥٩/٢).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، ومعنى (الدم الدم والهدم الهدم): كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك وهدمي هدمك، أي: ما هدمتَ من الدماء هدمتُه أنا.
(٤) أخرجه البخاري (٢٣٢٥).

لقد كان الأمر أعظم وأعمق من ذلك بكثير، إنه أثر الإسلام فيهم.

كان الإسلام قد ضرب بجذوره في قلوبهم وظهر أثره في تعاملاتهم وسلوكهم، مما جعلهم واعين لدورهم المحوري في دولة الإسلام الوليدة، ففي هذه المرحلة وقع عليهم عبء توطين الدعوة وتثبيت أركان الدولة، فاحتضنوا المهاجرين وأسهموا في بناء المسجد وبدَّلوا التحالفات التي كانت بينهم وبين اليهود إلى ما شرع لهم رسول الله ﷺ في صحيفة المدينة، وبهذا كانوا نِعم السند والمؤازر للإسلام والمسلمين.

بعد هجرة الرسول ﷺ أصبح لحياة الأنصار هدف أسمى من مجرد تكثير الأموال والأولاد والانتصار على الخصوم. فصار هدفهم الأعظم أن يلقوا ربهم عز وجل وهو راضٍ عنهم، فكانوا يسعون لنشر الدين والتمكين له في الأرض، مضحِّين بأموالهم وبأرواحهم

٣- التضحية والفداء:

تابعَ الأنصارُ حياتهم التي اعتادوها بعد هجرة الرسول ﷺ، لكن أصبح لها هدف أسمى من مجرد تكثير الأموال والأولاد، والانتصار على الخصوم. صار هدفهم الأعظم أن يلقوا ربهم عز وجل وهو راضٍ عنهم، فكانوا يسعون لنشر الدين والتمكين له في الأرض، مضحِّين بأموالهم تارةً وبأرواحهم تارةً أخرى. ظهرت هذه التضحيات في الغزوات والسرايا، ومن ذلك ما فعلوه في غزوة بدر حيث قال سعد بن معاذ رضي الله عنه –وهو سيد من سادات الأنصار– جوابًا للرسول عليه الصلاة والسلام حين طلب المشورة قبل المعركة: «... فوالذي بعثك بالحق، لو استعرَضت بِنا هذا البحرَ فخضَّته لَخُضناهُ معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تَلقى بنا عدونا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرَّ به عينك، فسِر بنا على بركة الله» فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك[١]، وانتقل من المشورة إلى الإعداد والتجهيز وتحفيز الصحابة وتنظيمهم.

فَطِنَ سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب رأي الأنصار خاصة[٢]، فالبيعة نصت على حماية الرسول والدفاع عنه في المدينة ولم تنص على خارجها، ولكن تلك النفوس الصافية التي تشرَّب قلبها الإيمان، انقلب حالها إلى الحرص على فعلِ ما يرضي الله ورسوله ﷺ بنفوس راضية مطمئنة ولو كلَّفهم ذلك تقديم أغلى ما يملكون.

أثبت الأنصار إخلاصهم، وصدّقت أفعالهم أقوالهم، ليس في غزوة بدر فحسب، بل في جميع الغزوات والسرايا. ومن ذلك أن عمير بن الحمام الأنصاري لما سمع بشارة الرسول ﷺ له بأنه من أهل الجنة إن قُتِل قال: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة»، ورمى تمرات كان يأكلها وانطلق لقتال المشركين[٣]، فكان أول شهيد من الأنصار في بدر، فرغم أن الرسول ﷺ بشره بأنه من أهل الجنة إن نال الشهادة في أي جزء من هذه الغزوة، إلّا أن نفسه أكبرت عليه أن يتكاسل، واستطالت البقاء في الدنيا حتى يأكل تمراته التي معه، ولم تمهله حتى لا تتأخر روحه عن دخول الجنة.

بلغت محبة الرسول ﷺ في نفوس الأنصار مكانة تفوق مكانة الأب والأم والولد، وقصص محبتهم وفدائهم له عليه الصلاة والسلام معروفة مبسوطة في كتب السيرة، وتشهد عليها مختلف الوقائع والغزوات

٤- قمم سامقة في حب النبي ﷺ:

لا شك أن إيثار الأنصار وتضحياتهم في سبيل نشر دين الله لا يمكن اختزالها بمشهد أو مشهدين بل كانت من تفاصيل حياتهم اليومية المعتادة، وليس ذلك بمستغرب منهم، فهم الذين بلغت محبة الرسول ﷺ في نفوسهم مكانة تفوق مكانة الأب والأم والولد، وقصص محبتهم وفدائهم

(١) سيرة ابن هشام (١٨٨/٢).

(٢) لما بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خروجُ قريش لحماية تجارتهم استشار الناسَ فيما يفعل، فقام أبو بكر فقال وأحسن، وكذا فعل عمر والمقداد رضي الله عنهم، والنبي يكرر الاستشارة، فقام سعد بن معاذ وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ (يعني الأنصار) فقال: أجل، فقال سعد رضي الله عنه: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك...» سيرة ابن هشام (١٨٨/٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠١).

أهم الخصائص التي رفعت منزلة الأنصار

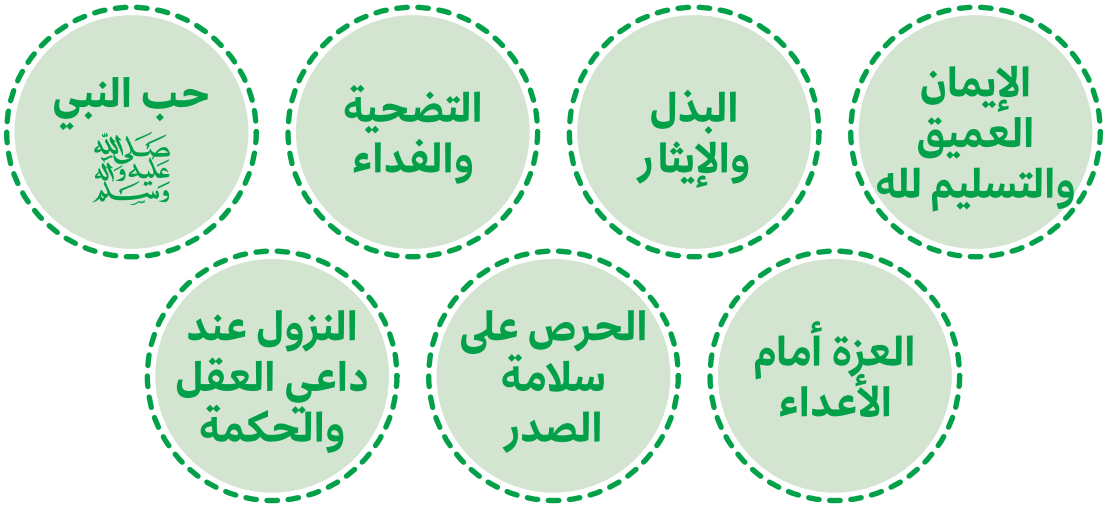

له ﷺ معروفة مبسوطة في كتب السيرة، من أعجبها قصة في غزوة بدر، تجمع بين المحبة في أبهى صورها وبين الشجاعة والإقدام، وهي قصة الغلامين الأنصاريين اللذين قتلا أبا جهل فرعونَ هذه الأمة، ووجه العَجَب فيها هو سبب رغبتهما في قتل أبي جهل، وقد اختصراه بقولهما: «أُخبرت أنه يسبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا»[1]، سبحان الله! إن الأنفس لتصغر أمام هذا المشهد الرائع من المحبة والإقدام والفداء، فهذان الشابان اللذان لم يتجاوزا السادسة عشرة من العمر اختارا أبا جهل ليقتلاه انتقامًا للرسول ﷺ وللإسلام والمسلمين رغم أنه لم ينلهما وقومَهما من سبِّ أبي جهلٍ ولا من إيذائه شيء، وهي صورة من الإقدام والفداء لا يقوم بها إلا من امتلأ قلبُه بحُبِّ الإسلام وأهله وشَغل نفسَه وعقلَه بهذا الدين والتضحية لأجله.

ومن ذلك ما فعله أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه يوم أحد، حيث وقف بين يدي رسول الله ﷺ يدافع عنه ويرمي المشركين بالنبال وكان رجلاً راميًا، فكان رسول الله ﷺ ينظر موضع رمي أبي طلحة، فيقول أبو طلحة: «يا نبي الله، بأبي أنت، لا تُشرف، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك»[2].

ولا ننسى في هذا السياق ما قالته الأنصارية حين نَعوا إليها زوجها وأباها وأخاها، فما التفتت لذلك لانشغالها بالسؤال عن رسول الله ﷺ، وما اطمأنّت نفسُها إلا حينما رأته وقالت له: «كل مصيبة بعدك جَلل»[3] أي صغيرة. شَغَلَها القلق والخوف على رسول الله ﷺ عن الحزن على أقرب الناس لها.

وهذه القصص على تعجُّبنا مما ورد فيها مما لم تعتد عليه النفوس أو تتحمَّله الأبدان فهي ليست الأعجب، فمما يفوقها عجبًا ما قاله زيد بن الدّثنة الأنصاري رضي الله عنه، وذلك حين أُسِر وبيع لقريش، وسأله أبو سفيان –وكان على الكفر حينها–: أنشدك الله يا زيد... أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تُضرَب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال له زيد: «والله ما أُحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّي جالس في أهلي». فقال أبو سفيان قولته المشهورة: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا

(١) أخرجه البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨١١) ومسلم (١٨١١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/٩٩).

كحب أصحاب محمدٍ محمدًا»[1]. نعم والله إن هذا الخبر لمن أعجب الأخبار، فرغم المكان البعيد والحال الشديد أبت عليه نفسه أن ينقص شيئًا من قدر الرسول ﷺ ولو على سبيل الخيال، بل أنطق الله لسانه بما وقر في قلبه من صادق الحب وعظيم الإجلال للمصطفى ﷺ.

٥- العزة أمام العدو:

رغم كل الإيمان الذي وقر في قلوب الأنصار ومحبتهم للرسول ﷺ والتسليم الكامل له، إلا أنهم كانوا لا يتحرَّجون من سؤاله عن كل ما يَظنُّون أنه يُبعدهم عن مُرادهم من حُسن الصحبة وصدق المعاملة وإخلاص العمل. من ذلك إباؤهم اقتراحَ النبي ﷺ بأن يُفاوضوا بعض قبائل المشركين على شطر ثمار المدينة حتى يفكُّوا الحصار عنها يوم الخندق، رفضوا الاقتراح حين أخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه يفعله رأفة بهم، فكان جواب سعد بن معاذ ﷺ حاسمًا واضحًا مليئًا بعزّة المسلم: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرىً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! واللهِ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»، قال رسول الله ﷺ: (فأنت وذاك). فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: «ليجهدوا علينا»[2]. وبذلك رفض الأنصار التفاوض مع المشركين اعتزازًا بالإسلام وافتخارًا بالمكانة السامقة التي وضعهم الإسلام بها.

كان الأنصار حريصين على سلامة صدرهم، يصدقون الله ورسوله ﷺ في أفعالهم وأقوالهم، فإن وجدوا في أنفسهم شيئًا بادروا فأخبروا به رسول الله ﷺ حتى يظهر لهم الحق فترتاح له نفوسهم وتسكن أفئدتهم ويزدادوا إيمانًا وتسليمًا

٦- الحرص على سلامة الصدر:

كان الأنصار يصدقون الله ورسوله ﷺ في أفعالهم وأقوالهم، فإن وجدوا في أنفسهم شيئًا بادروا فأخبروا به رسول الله ﷺ حتى يظهر لهم الحق فترتاح له نفوسهم وتسكن أفئدتهم ويزدادوا إيمانًا وتسليمًا. وكل ذلك يعلي من مكانتهم في المجتمع المسلم عامة وعند رسول الله ﷺ خاصة، حتى بلغوا مكانة ليست لسواهم. حكت لنا كتب السيرة قصصًا تدلل على ذلك، لعل من أجملها ذلك الحوار الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ بعد غزوة حنين، أنقل طرفًا منه لجمال عباراته وعمق نتائجه ورقة معانيه.

فقد وجد الأنصار في أنفسهم شيئًا لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعطهم شيئًا من الغنائم الكثيرة التي وزعها، وراجعه سعد بن عبادة الأنصاري ﷺ في ذلك، فاجتمع الرسول ﷺ بالأنصار ومما قاله لهم: (يا معشرَ الأنصار: ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟) قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: (ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟) قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل. قال ﷺ: (أما والله لو شئتم لقلتم، فلَصَدَقتُم ولصُدِّقتُم: أتيتَنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أَوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امْرَأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

فبكى القوم حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[3].

سبحان الله، كيف انقلب هذا الذي وجدوه في أنفسهم إلى منحة أبدية فاقت كل ما منحه رسول الله ﷺ لغيرهم، لابد وأن الأنصار ﷺ قد عادوا إلى المدينة المنورة وهم أكثر سعادة واطمئنانًا، كيف لا وقد رزقهم الله تعالى دعوةً خالصةً لهم

(١) سيرة ابن هشام (١٧٧/٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢٢٣/٢).
(٣) أخرجه أحمد (١١٧٣٠).

ولأبنائهم، وقد أزال تخوفهم من أن يتركهم ليستقر في مكة بأن قال: (لَسَلكتُ شِعبَ الأنصار)، كيف لا وقد قالها صراحة: (لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار).

من اللحظات الفارقة في تاريخ الإسلام تنازلُ الأنصار أبناء المدينة وأصحاب الأرض عن منصب القيادة ليقدموها لمن هو أحق بها، وهم بهذا تنازلوا عن منصب الخلافة العامة لعموم بلاد المسلمين، ولعل عملهم هذا حفظ الأمة الإسلامية من فتنة عظيمة وشرٍّ كبير

٧- النزول عند داعي العقل والحكمة:

لم يتردد الأنصار في خدمة الدعوة، وبذلوا في ذلك موطنَهم وأموالَهم وأنفسهم دون توان أو تأخير، وكل ذلك كان والرسول ﷺ حاضرٌ معهم ويعيش بينهم، ولَّما توفي عليه الصلاة والسلام أثبت الأنصار نقاء معدنهم وصفاء سريرتهم وصدق إيمانهم. يكفي القارئ المنصف أن يمر على قصة سقيفة بني ساعدة وكيف اجتمع الأنصار ليختاروا من أنفسهم خليفة للمسلمين، فانتهى اجتماعهم باختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومبايعته بالخلافة، اعترافًا بفضله، وإعمالاً للعقل والحكمة، ونزولاً عند أمر الله بالحض على اجتماع الكلمة والتنفير من التفرق، واستمرارًا لسيرتهم السابقة مع الرسول ﷺ في النصح والبذل والتضحية.

إنها من اللحظات الفارقة في تاريخ الإسلام عندما تنازل الأنصار أبناء المدينة وأصحاب الأرض عن منصب القيادة ليقدموها لمن هو أحق بها، هم بهذا العمل لم يقدموا منصب قيادة المدينة المنورة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل الأمر أعظم من ذلك، فهم تنازلوا عن منصب الخلافة العامة لعموم بلاد المسلمين لأبي بكر الصديق رضي الله عنه خاصة وللقرشيين من المهاجرين من بعده عامة، ولعل عملهم هذا حفظ الأمة الإسلامية من فتنة عظيمة وتنازع مفرق لها، وما حصل هذا إلا لرحمة الله بهذه الأمة وتوفيق الله للأنصار وتمسكهم بإيمانهم وما رباهم عليه الرسول ﷺ.

استوصوا بالأنصار خيرًا:

وبعد هذا التطواف ببعض خصال الأنصار رضي الله عنهم، لن نجد أفضل من حديث الرسول ﷺ لتأكيد مكانتهم في الإسلام .. فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منَّا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرْدٍ، قال: فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أُوصيكم بالأنصارِ، فإنهم كَرِشي وعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لَهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم)[1].

وقد تقدم معنا أن الأنصار بما سبقوا من الإيمان، وبما قدموا من التضحيات، وبما حباهم الله من مكانة سامقة صاروا جزءًا من عقيدة المسلم؛ محبتهم والإقرار بفضلهم من الإيمان، وبغضهم والإزراء بهم من النفاق، فسبحان من هدى أقوامًا لحبهم، وحجب عنه آخرين.

الأنصار صاروا جزءًا من عقيدة المسلم بما سبقوا من الإيمان، وبما قدموا من التضحيات، وبما حباهم الله من مكانة سامقة؛ محبتهم من الإيمان، وبغضهم من النفاق، فسبحان من هدى أقوامًا لحبهم، وحجب عنه آخرين

دروس وعبر من مدرسة الأنصار:

وختامًا وبعد أن استعرضنا بضعة شواهد لفضل ومكانة الأنصار فلا أقل من ذكر بعض الفوائد المستنتجة مما استعرضناه علنا نحقق بذلك قول الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن التشبه بالكرام فلاح

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٩)، ومعنى: (كرشي وعيبتي): أي إنهم بطانتي وخاصتي، وموضع سري وأمانتي.

ومنها على سبيل الذكر لا الحصر:

١. المبادرة إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة والعقل الصحيح. فالأنصار سمعوا من اليهود بقرب بعثة النبي ﷺ فلما رأوه وسمعوا منه عرفوه فأسلموا وسبقوا.

٢. الدنيا عرَض زائل ولَعاعة رخيصة، وكلما كان المرء أزهد فيها وأكثر بذلاً لها في سبيل الله كان أرفع درجة عند الله، والأنصار هم مضرب المثل في الإيثار والعطاء.

٣. عند وضوح الهدف وتحديده تتذلل الصعوبات ويسهل الوصول إليه ما وجدت الهمة العالية. كما في مواقفهم الكثيرة، ومنها قصة مقتل أبي جهل.

٤. الإيمان العميق والتسليم للقائد لا يمنع من مراجعته وسؤاله. فقد راجع الأنصار النبي ﷺ في بعض ما اقترحه لهم وقدموا اقتراحات أخرى استحسنها النبي ﷺ وعمل بها.

٥. المصارحة وحسن الظن المتبادل بين القائد والأتباع في السر أو العلن تمنع استمرار الفتن وقد تمنع حصولها من الأساس. كما حصل بين الرسول ﷺ والأنصار رضي الله عنهم بعد غزوة حنين.

٦. إذا اختير القائد واجتمعت الكلمة عليه فالأمانة تقتضي مساندته ومناصحته. وقد سلّم الأنصار لأبي بكر رضي الله عنه وقريش في الخلافة، وأدّوا دورهم بأمانة وصدق في بناء الدولة ونشر الدين ومناصحة الخليفة.

رضي الله عن الأنصار وأبناء الأنصار ونسأل الله سبحانه أن يجمعنا وإياهم مع النبي المختار عليه أفضل الصلاة والسلام.

إيمان الأنصار العميق وتسليمهم للنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنعهم من مراجعته وسؤاله. وقد راجعوه في بعض ما اقترحه لهم من خطط وقدموا له اقتراحات أخرى استحسنها النبي صلى الله عليه وسلم وعمل بها

التفكير في الرؤية الإسلامية

أ. فداء محمود الشوبكي (*)

في ظل التراجع الحضاري للأمة الإسلامية وتقدم أمم الشرق والغرب في المدنية والعلوم والقيادة؛ يصيب الشباب المسلم شيء من الانبهار ببهرج المدنية المعاصرة ومخترعاتها، وقد يرافقه شعور بالانهزام الداخلي، مع أنّ المنصف سيجد الإسلامَ قد أعلا من شأن العقل، ودعا لإعمال الفكر بما لم يحصل في أي دينٍ آخر، وعلى ذلك كان المسلمون.

مدخل:

التفكير عملية ذهنية نشطة تميّز الإنسان عن باقي المخلوقات. وحاجةُ الإنسان إلى التفكير مستمرة تلازمه في جميع مراحل الحياة، ومن خلاله يستطيع اتخاذ القرارات، والاختيارات، والقيام بما عليه من مسؤوليات.

وعلى الرغم من أنّ الإنسان ليس المخلوق الوحيد الذي يفكّر إلا أنه أكثر المفكرين مهارة وحنكة[1]. فتفكير الحيوان يغلب عليه الطابع العملي البسيط المتعلّق بإشباع الحاجات الأساسية، أما الإنسان فلا يكتفي بمتطلّبات البقاء بل يتعدّى ذلك إلى التفكير فيما يحيط به من أشياء وظواهر ويحاول تفسيرها وفهمها طلبًا للمزيد من التكيّف مع الظروف التي يعيش فيها، ويستغلها لصالحه[2]، ويبدو هذا جليًّا فيما حقّقه الإنسان من تقدّم في جميع مجالات الحياة.

وقد فطر الله الإنسان على التعلّم الذي يقوم على التفكير، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

(*) ماجستير مناهج وطرق تدريس العلوم، معلمة في وزارة التربية والتعليم بغزة، لها عدة مشاركات بحثية.

(١) التعلم وعملياته الأساسية «التفكير- اللغة- التوافق»، لندا دافيدوف، ص (٨٥).

(٢) موسوعة التدريس، لمجدي عزيز إبراهيم، ص (٦٩١).

> **يتجلَّى تكريم الإنسان في تحميله الأمانة، وهي التكاليف الشرعية التي مناطها العقل، وعند غياب العقل يُفقَد التفكير وبالتالي تُسلَب الإرادة فلا تكليف**

أنواع التفكير:[1]

تتعدّد أنواع التفكير، فمنها الإبداعي، والبصري، والناقد، والإيجابي، والشمولي وغيرها، وجميعها تصبّ في قسمين هما:

- **التفكير غير الموجّه أو غير المقيّد:** والذي يجري في الأحلام والرؤى، ويكون دون هدف معين، ويحدث من امتزاج الأفكار مع الذكريات، والصور العقلية والتخيّلات والمدركات الحسّية، والتداعيات، ويسمّى هذا النوع من التفكير بتيّار الشعور أو النشاط العقلي الهائم.
- **التفكير الموجّه لهدف:** والذي يجري في تعقّل أو تفهّم مشكلة، وهو ذو درجة عالية من الضبط، ويكون مرتبطًا بموقف أو مشكلة بعينها، كما يمكن تقويم هذا التفكير بمعايير خارجية، فالاستدلال وحلّ المشكلات من أمثلة التفكير الموجّه، وينتج عنه في المستوى البنائي تكوين تمثيلات عقلية جديدة.

ويمكن إضافة قسم ثالث وهو التفكير شبه الموجّه، والذي يبرق فيه جزء من المشكلة والفكرة حول موضوع ما، سواء كان هذا البريق في الرؤى أو أحلام اليقظة عند وجود مشكلة ملحّة ويقود إلى التفكير الموجّه، وذلك كما في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في حثّ قومه على التفكير طلبًا لهدايتهم عندما عدَّد لهم أنواع المعبودات من الكواكب مُبينًا عدم استحقاقها للعبادة، وصولاً إلى انفراد الله تعالى بالعبودية.

تكريم الإنسان بالعقل والدعوة إلى التفكير:

يحرص الإسلام على إصلاح البشرية وإسعاد الإنسان، فيرقى بالإنسان ليحقق العبودية لله تعالى، ويعمر الأرض، فيفتح له الآفاق ليعرف مكانته في الوجود وقيمته بين الأحياء، ومن ذلك تكريمه بنعمة التفكير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ويظهر هذا التكريم في تحميل الإنسان الأمانة، والأمانة هي التكاليف الشرعية، ومناطها العقل، وعند غياب العقل يُفقَد التفكير وبالتالي تُسلَب الإرادة فلا تكليف، فإن أَخَذَ ما وَهَب أسقَطَ ما أوجَب.

وقد دعا الإسلام للتفكير فيما يتسع له العقل البشري، فوردت كلمة التفكير في القرآن الكريم في مادة (فكر) ووردت بنظائر مختلفة منها: (التعقُّل، والتبصُّر، والتدبُّر، والتذكُّر، والنظر). وإنَّ الدارس المتبصِّر للقرآن الكريم يجد فيه آياتٍ حافزةً على ممارسة عددٍ من مهارات التفكير كمهارة الإصغاء، والانتباه، والتفكُّر، والربط بين المتشابهات، والتفريق بين المختلفات، والاستنتاج، والتتبُّع وغيرها[2]، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

> **جاء الإسلام ليضع البشرية في مسار الانطلاق لصياغة حضارةٍ من أكثر الحضارات فاعليةً وتأثيرًا على مدى الزمان، وفي سبيل ذلك أجرى ثلاثة تحولات أساسية شكّلت المناخ الملائم للحضارة وهي النقلة التصورية الاعتقادية، والنقلة المعرفية، والنقلة المنهجية**

مميزات الفكر الإسلامي عن الأفكار الوثنية:

جاء الإسلام ليضع البشرية في مسار الانطلاق لصياغة حضارةٍ متميزةٍ من أكثر الحضارات فاعليةً وتأثيرًا على مدى الزمان، وفي سبيل ذلك فقد أجرى ثلاثة تحولات أساسية شكّلت المناخ الملائم للحضارة وهي[3]:

- **النقلة التصورية الاعتقادية:** وهي أكثر النقلات أهمية لأنها بمثابة القاعدة التي بُنيت عليها سائر التحوُّلات، حرَّرت عقل الإنسان وكرامته ووضعته في موقعه الصحيح. ووجهته

(١) موسوعة علم النفس والتربية الشاملة، المركز الثقافي اللبناني ص (٩٨).
(٢) فن التفكير رؤية إسلامية، لأحمد البراء الأميري، ص (١٠).
(٣) ينظر: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، لعماد الدين خليل، ص (١٤-٢٩).

إلى عبادة الله وحده، وحدّدت له طريقة تعامله مع العالم.

» **النقلة المعرفية:** فمنذ جاء الإسلام كانت الكلمة الأولى: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١] واستمرت آيات القرآن على تأكيد التفكير والتفكُّر والتعقُّل والتدبُّر، وقد ألزم العقل البشري بذلك بمنطق الإيمان وسعى إلى تكوين بيئة عملٍ وإنجاز تتضمّن شروط تمكُّنها من العطاء، وها هنا في حقل التوجّه المعرفي تمكّن الإسلام من إيجاد هذه البيئة فبعث أمّة من الناس لا يزال عقلُها يعمل ويتوهّج حتى أضاء الطريق للبشرية.

» **النقلة المنهجية:** وهي ترتبط بالنقلتين السابقتين وتنبثق عنهما في الوقت نفسه، فالمنهج يؤدِّي دورًا مهمًا في حركة الإنسان الفكرية والحضارية. وقد امتدّت النقلة المنهجية للعقل المسلم بثلاثة اتجاهات: (السببية، والقانون التاريخي، والبحث الحسي التجريبي).

أمّا الاتجاه السببي: فقد منحت النصوص للمسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود وهي تتأمَّل وتبحث وتُعاين وتربط بين الأسباب والمسبّبات. ونقلت العقل من النظرة السطحية إلى التفكّر والتمعّن، فأُعيد تشكيل العقل ليملك القدرة على الرؤية الاستشرافية الباحثة عن العلاقات للوصول إلى الحقائق. وإنَّ الكشفَ عن السببية والأخذ بشروطها مكسبٌ كبيرٌ للعقل البشري وإضافةٌ قيّمة مكّنته من إعادة التشكُّل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع.

أمّا الاتجاه القانوني التاريخي: فقد كشف الغطاء أمام العقل البشري ليدرك أنّ التاريخ البشري يتحرّك وفق سننٍ ونواميس، وأنّ الوقائع التاريخية لا تحدُث بمحض المصادفة.

فالتاريخ لا يكتسب أهمّيته الإيجابية إلا بأن يُتّخذ ميدانًا للدراسة والاختبار تُستخلص منه القيم والقوانين. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

وعن منهج البحث الحسي التجريبي: فقد دعا القرآنُ الإنسانَ للتبصّر بحقيقة وجوده في الكون عن طريق النظر الحسيّ، وأعطى الحواسَّ مسؤوليتها الكبيرة عن كلّ خطوة يخطوها الإنسان في مجال البحث والنظر والتأمل، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وبالتالي: دفعه إلى بذل الجهد من أجل البحث والتجريب.

والحضارة الإسلامية ذات طابع مميّز يجمع بين الدين والدنيا وبذلك حقّقت التوازن بين الروح والمادة، وقد استطاع المسلمون المزاوجة بين تعاليم الدين والبحث العلمي التجريبي. وهو عكس ما كانت تعانيه أوروبا؛ فقد كانت تعيش في ظلام دامسٍ لعدة قرون نتيجة التفكير الكنسي الارستقراطي؛ حيث كان اعتمادهم على نظرياتٍ وشروحٍ للنصوص الدينية المستمدّة من الفكر اليوناني الوثني البعيد عن الواقع والمصادم للفطرة والميول الإنسانية والسنن الكونية، ولم تتقدّم أوروبا ولم تعتمد البحث العلمي التجريبي إلا بعد الاحتكاك بالمسلمين[1].

الحضارة الإسلامية ذات طابع مميّز يجمع بين الدين والدنيا ويوازن بين الروح والمادة، فاستطاع المسلمون المزاوجة بين تعاليم الدين والبحث العلمي التجريبي. عكس ما كانت تعانيه أوروبا؛ التي لم تعتمد البحث العلمي التجريبي إلا بعد الاحتكاك بالمسلمين

أساليب الإسلام في الدعوة إلى التفكير:

تتعدد الأساليب التي جاء بها الإسلام في الدعوة إلى التفكّر من خلال ما يلي[2]:

* **الإخبار والتذكير بنعم الله**، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقد سميت سورة النحل «سورة النِّعَم»، روى حماد عن علي بن زيد قال: «كان يقال لسورة النحل: سورة النِّعَم، يريد لكثرة تعداد النعم فيها»[3].

(١) دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، لصالح الرقب ومحمود الشوبكي، ص (١٧٥).
(٢) التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، لعبد الوهاب محمود حنايشة، ص (١٤).
(٣) زاد المسير (٤/٤٢٥-٤٢٦).

* **الدعوة للتفكير**، بالاستنكار والوعيد للقاسية قلوبهم وليقود للأحكام الصائبة والاستدلال السليم. كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

* **أسلوب القصص**، بالنظر في قصص الغابرين والاتِّعاظ منها، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. وقد ورد في القرآن والسنة العديد من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقصص الصالحين والفجار ومآلاتهم.

* **أسلوب الوصف**، ومنها وصف النبي ﷺ لرحلة الإسراء والمعراج، ووصف نعيم الجنة وعذاب النار، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ووصف أحوال أهل القبور، وأهوال القيامة ومنازل المؤمنين والعصاة في ذلك اليوم العصيب، وما يحدث بينهم من مواقف.

* **الجدل والحوار**: فالحوار يعمل على تغيير طريقة التفكير عند الإنسان ويوجهه إلى وجهة أخرى، ومن أجلى أمثلته: حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه حول عبادتهم للكواكب والنجوم، وحواره مع النمرود حول ادعائه للربوبية، وكذلك حوارات موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه بني إسرائيل، وحوارات أنبياء الله نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم مع أقوامهم، وفي الحديث: إنَّ فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: (ادْنُه)، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)، قال: (أفتحبُّه لابنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لبناتهم)، قال: (أفتحبُّه لأختك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأخواتهم)، قال: (أفتحبُّه لعمتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبُّونه لعمَّاتهم)، قال: (أفتحبُّه لخالتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم)، قال: فوضع يده عليه وقال: (اللهم اغفر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه)، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[١].

* **إثارة الدافعية**: فإن طريقة عرض المشكلة قد تثير دافعية الإنسان للتفكير وهو ما ظهر في قوله ﷺ: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟) فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي؟ يا رسول الله، قال: فقال: (هي النخلة). قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت: هي النخلة، أحب إليَّ من كذا وكذا[٢].

* **توجيه التفكير نحو الهدف**: فالهدف الأسمى للمسلم عبادة الله والفوز في الجنة بصحبة الأنبياء والصديقين والشهداء، والبعد عن الدنيا لذا كان الرسول ﷺ يوجه التفكير نحو هذا الهدف، فقال ﷺ: (من سره أن ينظر إليَّ يوم القيامة كأنه رأي عين! فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت)[٣]. وفي حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ مر بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كَنَفَتَه، فمرَّ بجدي أسكّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) فقالوا: ما نُحِبُّ أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟! قال: (أتحبون أنه لكم؟) قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: (فوالله لَلدنيا أهون على الله من هذا عليكم)[٤].

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١١).
(٢) أخرجه البخاري (١٣١) ومسلم (٢٨١١).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وقوله: (كَنَفَتَه) أي يَمشُون بِجانبِه وحوْلَه
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٥٧)، وقوله: (أَسَكّ) أي مقطوع الأذنين.

التحولات التي أحدثها الإسلام في الفكر وشكّلت المناخ الملائم لازدهار الحضارة

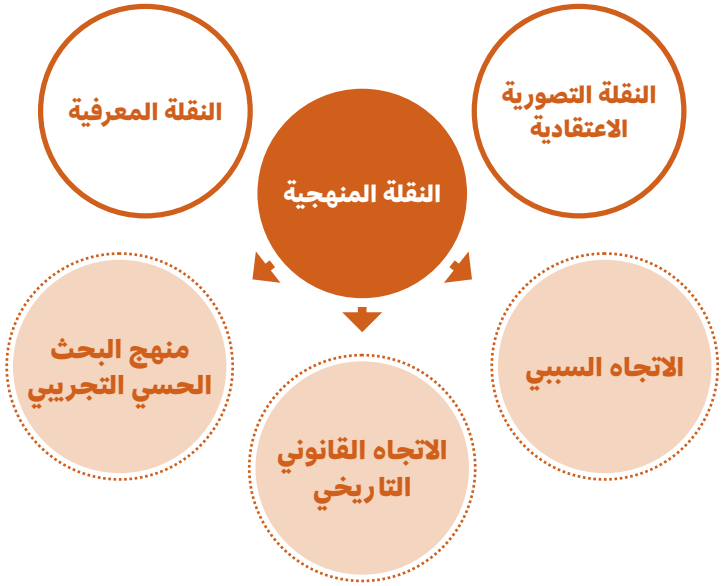

* **تنمية القدرة على التخيل:** يستعين التفكير بالتخيل، فالتخيل خطوة سابقة للتفكير، ومن خلاله يحدث تصور الموقف، كما أن التفكير يدعم التخيل، ومن ذلك أحاديث وصف الجنة. فعن سهل بن سعد قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) ثم اقترأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧][1].

* **التحدي:** وفي التحدي فرصة كبيرة للتفكير، فهو يعطي الإنسان خيار السلوك والتصرف السليم من خلال التفكير، فعن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: (مَن يَضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رجليه، أضمن له الجنة)[2]. ومن أمثلته العظيمة التحدي الذي وقع بين موسى وسحرة فرعون، إذ دعوه للتحدي صراحةً فقبل التحدي وحدَّد لهم موعدًا يشهده كل الناس، قال تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٨-٥٩]، وعموم معجزات الأنبياء تحمل معنى التحدي، وعلى رأسها القرآن الكريم الذي تحدى اللهُ بُلغاء العرب وفُصَحاءهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، ولما عجزوا تحدَّاهم بما هو أقلّ من ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فعجزوا وخابوا وعلم العقلاء صدق محمدٍ ﷺ.

* **ضرب الأمثال:** فعملية ضرب الأمثال تسهم في تنمية التفكير من خلال ربط المتشابهات معًا وتحديد قوة العلاقة بينها وهي كثيرة ومتنوعة في القرآن والسنة، ففي عدد من المواضع في القرآن نجد الأمثال صريحة بذكر لفظة «مثل» أو بكاف التشبيه، أو مضمنة تفهم من السياق، وغايتها التفكُّر ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ومن أمثلتها في

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).

السنة قوله ﷺ: (مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة)[١]. ويقول: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٢].

* **أسلوب التساؤل:** كان الرسول ﷺ يستخدم أسلوب التساؤل كثيرًا، وهو ما يثير التفكير عند السامع ومن ذلك عن عبدالله بن مسعود أن الرسول ﷺ سأل أصحابه: (ما تعدون الصُّرَعَةَ فيكم؟) قال قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: (ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)[٣]. وعندما سأل ﷺ أصحابه: (أتدرون ما المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[٤].

> **تغيير طرق التفكير هي البداية الحقيقية لأي عصر من العصور، وهو ما يدعو إليه القرآن والسنة. وإن نجاح المشاريع الإصلاحية بأي مجال لا ينجح إلا بإحداث نقلة نوعية في أساليب التفكير وطرائقه**

من نماذج المفكرين في عصر النبوة:

أظهر عصر النبوة البراعة في التفكير عند الصحابة والصحابيات ﷺ وفي كيفية التصدي للمشكلات ومن هذه النماذج:

الحباب بن منذر ﷺ:

فقد فكر تفكيرًا عسكريًا في غزوة بدر الكبرى لما رأى أن المكان الذي نزل به رسول الله ﷺ غير مناسب عسكريًا، فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة). قال: فإن هذا ليس بمنزل، انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم ثم نُغَوِّرُ ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أشرت بالرأي)[٥].

أم المؤمنين أم سلمة ﷺ:

ظهرت حكمتها في وقت عصيب وقت؛ توقيع وثيقة صلح الحديبية، والصحابة وجدوا في أنفسهم من بنود الصلح ما وجدوا، فقد روت أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه بالحديبية: (قوموا فانحروا ثم احلقوا)، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر ذلك لها، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم منهم أحدًا، حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا[٦]

خلاصة القول:

لقد كرَّم الله الإنسان بالعقل، وقد ظهرت براعة المسلمين وسبقهم الحضاري بسبب تفوقهم الفكري وحسن تصرفهم فحكموا العالم. فتغيير طرق التفكير هي البداية الحقيقية لأي عصر من العصور، وهو ما يدعو إليه القرآن والسنة. وإن نجاح المشاريع الإصلاحية بأي مجال لا ينجح إلا بإحداث نقلة نوعية في أساليب التفكير وطرائقه.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨١).
(٥) سيرة ابن هشام (١٩٢/٢)، القُلُب: الآبار.
(٦) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

لماذا أُؤمِن؟!

أ. محمّد ياسين نعسان(*)

يدقُّ الصالحون اليوم ناقوس الخطر مُحذِّرين من انتشار ميلٍ نحو الإلحاد بين شباب المسلمين، وهذه الظاهرة تزداد في الدول المنكوبة بويلات الحروب والتخلف والانهيار الاقتصادي، فما هي أسباب هذا الإلحاد وكيف تسلل إلى نفوس الشباب؟ وكيف نقي شباب المسلمين من الوقوع في براثنه؟ يحاول هذا المقال تناوله وإلقاء الضوء عليه

كثيرًا ما نسمع عن أناس آمنوا بعدما كانوا في ريبةٍ من أمرهم، وأيقنوا بعدما كان الشكُّ يستحوذ على تفكيرهم، وهذا طريق سليم للوصول للإيمان الحق، وهذا المنهج مستوحى من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في إثارة الشكوك والتساؤلات حول المعبودات من دون الله تعالى وصولاً إلى الإيمان بالله، لكن غير الطبيعي أن يكون الحال معكوسًا، فالنكوص من الإيمان إلى الريبة يستدعي منا وقفة لنرى أسبابها ونتائجها وأين مكمن الخلل فيها، كما يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي هذا المقال عرض لمشكلة الإلحاد بعد أن بدأ يظهر عند بعض شباب مجتمعاتنا.

الإلحاد بين الماضي والحاضر:

ليس من الحكمة أن نتجاهل المشاكل التي تُواجه مجتمعنا بهدف الإبقاء على صورته الناصعة، فنحن نعيش اليوم أزمة يواجهها الشباب في معتقداتهم وقيمهم نتيجة تفرق العالم الإسلامي وضعفه وتراجعه، وهذا الحال أوجد قدرًا من التشويش العقائدي عند بعض الشباب وفقدان الثقة بما يؤمنون به، وكبتُ هذا التشويش خوفًا من مجتمع يرفض الإقرار بما يجول في نفسه يؤدي إلى تحوّل هذا التشويش إلى مصدر لشكٍّ ينهش

(*) كاتب سوري.

عقل وقلب الشاب، والغلاف الذي يغطيه لا يبرح أن يزول عندما تغيب عنه الرقابة الاجتماعية، وعند أول اختبار حقيقيّ يواجهه، كما نشاهد عند بعض المهاجرين لبلاد غير المسلمين وتعرضهم لأفكار ومعتقدات تزعزع معتقداتهم وأفكارهم.

وهذا الشك السلبي مختلف كثيرًا عن الشكّ المنهجي المعروف عند الفلاسفة الذي يهدف للوصول لليقين؛ فهذا شكّ عقليّ بحت، بينما الذي نتحدّث عنه هنا هو ما يمكننا أن نسمّيه (شكًّا نفسيًّا) ليس له أصول عقلية منطقية، والإلحاد المعاصر بشكل عام يختلف عن الإلحاد الفلسفي القديم الذي ينتُج عن تفسيرات عقلية للوجود فهذا الأخير دائمًا ما كان يواجَه بحجج منطقيّة فلسفيّة لإثبات وجود الإله، بينما العديد من صور الإلحاد المعاصر ناتجة عن شرخ يفرز تناقضًا بين ما هو عقائدي وبين ما هو واقعي، فهو حالة نفسية أكثر منه حالة عقلية، إنه رفض للمعتقد الذي ظاهره يخالف واقع الحال المتبدّي للعيان.

نعيش اليوم أزمة يواجهها الشباب في معتقداتهم وقيمهم نتيجة تفرُّق العالم الإسلامي وضعفه وتراجعه، وهذا الحال خلق قدرًا من التشويش العقائدي عند بعض الشباب وفقدان الثقة بما يؤمنون به

على مر الزمان اجتهد العلماء في تقديم الأدلة العقلية والمنطقية على وجود خالق موجِد لهذا الكون، بهدف الوصول لإيمان يعتمد على العقل الذي لا يفتأ يبحث عن حلول توافق قوانينه وتكوينه.

وفي المقابل ظهرت موجات الإلحاد مع ظهور الفلسفات الوضعية المادية والتي ركّزت اهتمامها على الطبيعة ورفضت فكرة ما وراء الطبيعة، لذلك فهي ترى الإيمان عمومًا حالة لا عقلية، وتصفه أنه عجز عن فهم هذا العالم بما فيه من ظواهر، فرواد هذه التيارات يرون أن العلم المعاصر قد توصّل لكثير من التفسيرات التي كان يعجز عنها من سبق، ابتداءً بالداروينية التي حاولت إلغاء فكرة الخلق، وصولاً إلى النظريات الفيزيائية التي تفسر نشأة الكون بالانفجار الأعظم، وبما أفرزته الفلسفة الوجودية بقلب المفاهيم عن أولوية وجود الإنسان كجسد على ماهيته التي يمكن معادلتها بكلمة روحه، لذلك يرى الإلحاد المعاصر أن على الإنسان المعاصر التخلّص من فكرة الإله التي كانت مُبرَّرة في عصور ما قبل النهضة العلمية، أما الآن فقد قدّم العلمُ إجابات عن كل التساؤلات التي كانت خافية عن الإنسان القديم، وما لم يفسره العلم حتى الآن فهو غير موجود!.

وفي سياق هذا الحديث لابد من معرفة أن الإلحاد أنواع وأقسام، فليس كل ملحدٍ يحمل الأفكار والتوجهات نفسها، بل هناك أنواع مختلفة من الإلحاد من حيث المنشأ أو الفكر الذي صدرت عنه، وما يهمنا الحديث عنه هنا هو الإلحاد الناتج عن التفاعلات النفسية مع الواقع المعاش أي الإلحاد النفسي، والذي يمكننا القول عنه: إنه أخطرها؛ لأنه لا يستند على أفكار بل على مزاجيات سيكولوجية، وهنا لا بد من الإشارة لتوجهات الإلحاد العامة، والمرجع الذي نشأت عنه للتمييز بينها وتوصيف حالة الملحد النفسي، فالإلحاد –عمومًا– يمكننا أن نصنّفه ضمن ثلاث توجهات وهي:

١- الإلحاد في شكله العلمي:

وهو كما سبق الإلحاد الناشئ عن التوهم بقدرة العلم على تقديم حلول لكل مشاكل الإنسان المادية والنفسية وحتى الأخلاقية منها، وهذا النوع يعتمد على نظريات علمية في مختلف العلوم الطبيعية لإحلالها محل العقائد الإيمانية، ويمكن تقويض أسس هذا الإلحاد ببيان بطلان صحة هذه النظريات أو الرد عليها بطريقة علمية، وببيان أن العلم لا يمكنه إدراك كل شيء.

٢- الإلحاد في شكله الفلسفي:

وقد ظهر هذا الإلحاد من خلال فلسفات كانت تحاول تفسير الوجود بعيدًا عن نور الوحي منذ زمن اليونانيين القدماء وصولاً لعصر النهضة الأوروبية الحديث، تجلت بصورة سجالات حول إثبات وجود الإله وما يقابله من محاولات إبطال هذه البراهين من قبل المُنْكِرين لوجوده، والمتتبع لتاريخ هذا الفكر يرى أنَّ الفلاسفة المنكرين لوجود الله قلّة قليلة، ولم تلقَ نظرياتهم القبول العام، وذلك لسبب يسير وهو أنهم لم يقدِّموا نظريات بالمعنى الدقيق، بل كان كلّ عملهم هو (الإنكار)؛ إنكار ما هو مُثْبَت بالأدلة والبراهين دون تقديم نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين، مع أن الفريق

الآخر كان إيمانه بوجود الإله مليئًا بالتصورات الوثنية والخرافية.

> **يحصل الإلحاد النفسي بسبب أزمات وضغوط يعاني منها الشخص، فيظنُّ أنه يهرب منها من خلال إنكار الخالق، وأبرز ما تتجلى فيه هذه الأزمات الظروف الضاغطة والأحوال الصعبة التي يمرُّ بها الشخص أو مجتمعه**

٣- الإلحاد النفسي:

وهو إلحاد يحصل بسبب أزمات وضغوط نفسية يعاني منها الشخص، فيظنُّ أنه يهرب منها من خلال الإلحاد وإنكار الخالق، وأبرز ما تتجلى فيه هذه الأزمات الظروف الضاغطة، والأحوال الصعبة التي يمرُّ بها الشخص أو مجتمعه، كما وقع في أعقاب الحربين العالميتين وما تلاهما من تحولات فكرية وسياسية واجتماعية هزت المجتمعات من أساسها، وما يحصل في زماننا هذا في عَقْدِ الثورات وبلاد العرب التي أنهكها الظلم والاستبداد وانتهاك الآدمية، وسرقة الخيرات، ثم ما عانته العديد منها في ظل محاولة وأد هذه الثورات من قمع واضطهاد وحروب، فيتساءل شابٌّ داخل نفسه: (لماذا أؤمن) في بلاد المؤمنين المدمرة؟، (لماذا أؤمن) في بلاد المؤمنين الظالمة لأبنائها؟، (لماذا أؤمن) في بلاد تقتل أحلام شبابها ويسيطر عليها المجرمون ويعلو فيها السفهاء وينهش الفقر أبدان الصادقين والشرفاء المؤمنين؟، بينما هناك في بلاد اللاإيمان تنتعش الكرامة والحرية والأمان والمستقبل المشرق؟!

هذه الهواجس تلحّ على عقل هذا الشاب أو ذاك، وتحاول أن تُنهي حالة الصراع الداخلي بين واقعٍ قاسٍ يفرض على الإنسان معتقدًا يوافق حالة التشوش الناتجة عنه، وبين حالة وجدانية ترفض التخلي عن دفء الشعور الناتج عن اتصال الإنسان بخالق رحيم، وفي حال لم يُعالج هذه التشوش فإن البحث عن حل يدفع البعض إلى إنكار وجود الإله هربًا من هذه الضغوط النفسية.

هذا التوجه من الإلحاد أخطر من التوجهين السابقين، لأنه يقوم على إنكار ناتج عن محاولة استنتاج المعتقد من الواقع، أي إنكار الاعتقاد والقول ببطلانه من خلال معطيات مجتزأة من الواقع لا من العقيدة ذاتها بكونها منظومة جاءتنا من خلال الوحي والرسالات، بل يستند صاحب هذا النوع في اعتقاده على الإفرازات التي أنتجها الواقع الذي يدّعي تبني تلك المنظومة العقائدية، فهو يتبنى نتاج الممارسة الخاطئة ويحكم من خلالها على المعتقد النظري الذي هو غير مسؤول عن التطبيقات الخاطئة أو حتى عدم التطبيق نهائيًا، ولكن إلصاق التهمة بالفشل للمعتقد غير المتَّبَع أساسًا.

الإيمان من المنظور النفسي السيكولوجي:

لابد أن نُدرك أولاً أن الإنسان بحاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وأن حياته لا تستقيم إلا بذلك، فالنفس البشرية مفطورة على الإيمان بالله، والإيمان بالغيب، وهذه النفس حتى تسعد ولا تشقى تحتاج لاستقرار وهدوء، وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالله تعالى؛ وذلك لأمور من أهمها:

١. الإيمان بالله تعالى يعني تفويض الأمور إليه، والتوكل عليه، والاستناد إلى قوته العظيمة فيضع فيها الشخص آماله ويحط عندها آلامه، فيتجنب بذلك التوكل على المخلوقات الضعيفة التي لا تملك من أمرها شيئًا، فتهدأ نفسه وتطمئن، وتبتعد عن الخوف والقلق الدائم من الاعتماد على ما لا يمكن الاعتماد عليه.

٢. عقل الإنسان وعلمه محدود لا يستوعب كل شيء ولا يستطيع إدراك كل شيء، لذا فإنه لن يحل له كل شيء، وستبقى الكثير من الأمور ألغازًا وطلاسم لا يمكن معرفتها، وهي حوله متعددة وديناميكية ومتشعبة، فإن أصر على اكتشافها ومعرفتها فلن يزيده ذلك إلا حيرة واضطرابًا وتوترًا وقلقًا، بينما الإيمان بالغيب يريح الإنسان من ذلك، فيجعله يؤمن بالأشياء والأحداث دون أن يجهد عقله المحدود في الوصول إلى إجابات غير ممكنة، مما ينعكس على استقرار نفسه وصحة عقله.

لأجل ذلك فإن الله تعالى اختص المؤمنين بالثناء على إيمانهم بالغيب، وقد ذُكر الغيب في القرآن الكريم في حوالي (٦٠) آية. ويكفي أن أول صفة للمؤمنين كانت الإيمان بالغيب كما جاء في الآية رقم (٣) من سورة البقرة في أول القرآن ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، ثم في الآية (١٧٩) من سورة آل عمران ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، مما يدل على الأهمية القصوى للإيمان

مقارنة بين خطابين حول تعرض المؤمن للمصائب

الخطاب الدعوي الصحيح	الخطاب الدعوي الخاطئ
الإيمان مبدأ ووجوده لا يمنع من حصول الكوارث ويبعث على الراحة النفسية لأنه يفسر الحياة بشكل صحيح	الإيمان يجلب السعادة والأمن الدنيوي ويحميك من الكوارث
النتيجة: الصلابة في وجه المصائب	النتيجة: الهشاشة والشك عند أول امتحان

المطلق بالغيب. فالإيمان بالغيب هو دلالة قطعية على الإيمان بالله والإخلاص في عبادته؛ كما أنه يجعل النفس مستقرة ويدربها على الإخلاص وعلى القبول والتسليم بآيات الله حتى وإن لم نستطع أن نراها رأي العين[1].

وقد تحدث العلماء والمفكرون المسلمون عن أثر الإيمان على الفرد والمجتمع، كما تحدث بذلك بعض فلاسفة الغرب، ومنهم الفيلسوف الألماني (كانط) حيث ربط بين وجود القِيَم الأخلاقية والالتزام بها بوجود الله عز وجل، فأقر بضرورة الإيمان بوجود الله «كضرورة» لحفظ القيم الأخلاقية التي يجب علينا أن نلتزم بها، فهو يضع كل الأدلة الأخرى جانبًا ويقرّ بضرورة «التسليم» بهذه الحقيقة، فهو لا يستطيع تخيّل حياة أخلاقية بدون وجود الله الذي يضمن للإنسان جدوى التزامه بالقيم وذلك من خلال وجود عالَم آخر تسود فيه العدالة.

نعم.. فما الذي يُلزمني بأن أكون صادقًا وعفيفًا وعادلاً إذا لم يكن هناك إله وعالَم آخر يثاب فيه المحسن ويعاقب فيه المسيء؟![2].

أرواحنا بحاجة للإيمان:

وبالعودة لما قلنا سابقًا عن حالة الشباب المتأزّم نفسيًا في هذا العصر المتخبط والمتسارع في تقلباته فنحن بحاجة إلى الإيمان بالله من الجهة النفسية السيكولوجية قبل كل شيء، ومن يتأمل هذا الواقع الذي نعيش فيه بشيء من التعقل المزوج بالوجدانية، ويرى كيف نعيش حالة الخيبة والألم والفوضى والانكسارات على المستوى الجماعي وعلى المستوى الفردي الحياتي اليومي، لا بدّ أن يتساءل: كيف لنا أن نستمرَّ في الحياة دون وجود أمل بحياة أفضل؟ وكيف لنا أن نعيش في هذا العالم دون أزمات نفسية واكتئاب ويأس بعدَ انسداد الأفق، وفقدان الحلول والخلاص بدون وجود إيمان بما هو أفضل، بما هو أرحم، بما هو جزاء لنا على ما تحمَّلنا من صِعاب؟!

كيف لنا أن نحيا مع اللاجدوى واللامعنى والعدمية التي ينادي بها المشككون؟! وكيف لي أن أتخيل نفسي أني غير موجود في لحظة من اللحظات كما يحاولون إقناعي بأني عبارة عن قشة في مهبِّ الريح وأني سأنتهي إلى اللاوجود أو العدم؟!

(١) بتصرف من مقالة الإيمان بالغيب والصحة النفسية بقلم د. محمد لبيب سالم، مدونة ملهم.

(٢) نقد العقل العملي، عمانويل كانط، وقد عالج الشيخ عبد الله العجيري هذه النقطة باستفاضة في كتابه (شموع النهار) في المستوى الثاني من مستويات الدلالة الفطرية على وجود الله.

وكيف لي أن أؤمن بالمصادفة فقط، وأقتنع أنها هي التي منها ابتدأنا وسننتهي من خلالها أيضًا كأيّة حلقة دخان خرجت من سيجارة أحدهم دون قصدٍ وستتلاشى إلى اللاشيء؟!

وعلى سبيل المثال، فنحن في (سوريا) اليوم أحوج ما نكون إلى الإيمان لكي تبقى نفوسنا حيّة بعد أن أنهكها الدمار والتهجير والفقر، وبعد أن أتعبها واقع ملموس لا يبشر بفرَجٍ قريبٍ، فكيف لهذا الشعب أن لا ينتظر النصر من يقينٍ يبعث الطمأنينة وإمكانية الاستمرار؟!.

فعندما ينادي المؤمنون: (متى نصر الله؟) وذلك من شدّة تردّي الواقع والمعطيات الموجودة فيلجؤون لما هو فوق الواقع والمعطيات من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فهذا السؤال ليس من باب الشكّ بل هو عكس ذلك تمامًا، إنه الإيمان الكامن في أعماق النفس البشرية بأنَّ الفرَجَ بِيَدٍ أعلى من أيديهم.

فأرواحنا دائمًا بحاجة للإيمان بما هو خير مطلق مع انتشار الشرّ في الأرض، وبما هو حقّ مطلق مع شيوع الظلم، وبما هو جمال مطلق مع طغيان القبح على هذه الحياة.

نعم.. نحن بحاجة نفسية لله عزَّ وجل، ولا تعنينا كلّ نظريات الملحدين التي يتحدّثون بها عن العقلانية الجافة وفيزياء الكمّ والذكاء الصناعي الرقمي إذا لم تقدِّم لنا السعادة في الدارَين.

وهنا لابد من الإنصات لكلمات سيد قطب رحمه الله عن أهمية الإيمان على الروح والنفس: «الإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله، فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة، طينة من لحم ودم كالبهيمة، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها لولا تلك الإشراقة التي تنتفض فيه من روح الله، يرقرقها الإيمان ويجلوها، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم، ويشف بها هذا الكيان المعتم.

والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق، ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار»[1].

وفي هذا السياق لا ينبغي أن نغفل عن مفكر وقائد عظيم حارب الإلحاد فكرًا وعملاً في العصر الحديث وهو علي عزت بيغوفيتش الذي قاد مسلمي البوسنة للتحرير ضد أكبر تيار إلحادي عرفه العصر الحديث وهو التيار الشيوعي في يوغسلافيا؛ فقد اعتمد بيغوفيتش رحمه الله على فكرة ثنائية (الطبيعة والإنسان) ودافع بها عن الإيمان مقابل الواحدية الإلحادية التي ألغت الإنسان مقابل الطبيعة، فقد حاربهم فكريًا بكتابه الذي يعتبر من أهم ما كتب في العصر الحديث عن هذا الاتجاه (الإسلام بين الشرق والغرب) وقد كان يعتبر الإيمان المصدر الأول للأمان: «إن الإيمان بالله والإيمان بعنايته يمنحنا الشعور بالأمن الذي لا يمكن تعويضه بأي شيء آخر»[2].

وأخيرًا فإن علماء النفس اليوم وبعد التطور الكبير الذي شهده هذا العلم في العقود الأخيرة يؤكدون على أن النفس لا تستطيع أن تكون سليمة بدون تعلقها بقوة مطلقة تبعث فيها الأمل والأمان والطموح الدائم نحو الأفضل فكما أن للجسد جهازًا مناعيًا يشكل سدًا ضد الأجسام الغريبة التي تدخل للجسد فكذلك للنفس جهازٌ مناعي يكون سدًا ضد الأفكار والأوهام واليأس؛ ألا وهو الإيمان.

كيف لنا أن نحيا مع اللاجدوى واللامعنى والعدمية التي ينادي بها المشككون؟! وكيف للمرء أن يتخيل نفسه بأنه عبارة عن قشة في مهبِّ الريح وأنه سينتهي إلى اللاوجود أو العدم؟! وكيف يمكن أن تكون المصادفة هي البداية والنهاية كأيّة حلقة دخان خرجت ثم تلاشت؟

كيف أؤمن؟

بعد ما قيل عن أهمية الإيمان قد نواجَهُ بسؤال يقول: لماذا لم يكن إيمانكم بالإله مغيِّرًا لحالكم السيئة التي تعيشون فيها الآن؟ وفي الحقيقة لدينا مفاهيم وأفكار مغلوطة عن الإيمان، وقد أسهمتْ

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٨٥).
(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٣٧٣).

في نشر التشكيك لدى شريحة من شباب اليوم، وأهم ما يجب التنويه له هنا ربْط بعض الدعاة الإيمان بغاية حياتية مباشرة بغية تشجيع الناس على الإيمان، كمن يقول: إنَّ من يمارس العبادات بطريقة صحيحة سيكون في مأمن من الفقر مثلاً، فماذا سيكون حال الإنسان الذي يؤدي عباداته ولايزال فقيرًا؟!

الإيمان غاية وليس وسيلة، وعندما يتمّ تحويله لوسيلة من أجل غاية أقلّ منه لن نصل إلى تلك الغاية بل سيتحول الإيمان إلى حالة مشكوك فيها؛ لأنه لم يحقق الغاية التي رُبط بها أو وُجد من أجلها، فالهزيمة في معركة بين المؤمنين وغيرهم يجب أن لا يتمّ ربطها بالحقيقة الإيمانية للناس لأنّ ذلك مغالطة كبرى لها ارتدادات سلبية، بل علينا أن نعي أن الإيمان في جزء منه هو أن تعطي لكل غاية أسبابها المادية، فالإيمان لا يعني أن نشترط على الله عز وجل تحقيق أهدافنا الدنيوية، ولا يُسْتَمَدُّ الإيمانُ من نتائج أفعالنا، وكذلك فهو لا يعني أن نربط صدق هذا الإيمان بنجاحاتنا أو إخفاقاتنا، فعندما نؤمن تصبح الأحداث نتائج لإيماننا لا غايات، وهذه النقطة مهمة جدًا لمعالجة إسقاط فشلنا على إيماننا، ففي ثاني معركة للمسلمين (أُحُد) لم يكن النصر حليفهم، ولم يكن لذلك تأثير في إيمانهم لأنهم تربّوا على الإيمان المستمدّ من السماء لا من نتائج أحداث الأرض، بل كانوا يبحثون عن أخطائهم وجوانب تقصيرهم التي أدَّت لهزيمتهم، والأسباب التي يجب أن يوفّروها لتحقيق غاياتهم.

وفي الختام نقول: إنَّ الإيمان حاجة لنا كبشر على جميع الصعد الحياتية والأخرويّة، وليس شرطًا مزاجيًا تتحكم به مجريات الأحداث على المستوى الجماعي والفردي، فإذا اسْتُمِدَّ الإيمانُ من السماء كانت نتائجه مُذهِلة على الأرض، أما إذا اسْتُمِدَّ من الأرض فسرعان ما سنفقده، إنه الفرق بين ما هو مُطْلَق وبين ما هو نسبي.

«الإيمان بالله نورٌ تُشرق به النفس، فترى الطريق، ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار»

سيد قطب

قراءة في كتاب: «التطبيع استراتيجية الاختراق الصهيوني» لغسان حمدان

أ. محمود نادر المصري(*)

في الآونة الأخيرة لا يكاد يمرُّ يوم إلا وتتناول فيه وسائل الإعلام مصطلح «التطبيع» وأخباره التي باتت حاضرة في المشهد العربي والإقليمي، ولمعرفة تاريخ التطبيع وبداياته ومجالاته وفوائده للمحتل، والسبل التي سلكها هذا الكيان لتنفيذه، والمراحل التي مرَّ بها، وموقف الشعوب العربية منه، نقدم لكم قراءة في هذا الكتاب

يُعد هذا الكتاب من أهم ما أُلف في رصد التطبيع وتأريخه، وعلى الرغم من مضي عقود على تأليفه إلا أن له مكانته في المكتبة العربية؛ لذا فقد وقع الاختيار عليه لعرضه في هذا المقال.(١)

التعريف بالمؤلف(٢):

غسان سليم عبد الأمير حمدان واحد من أبرز المترجمين العرب، أديب وشاعر، وباحث في الشؤون الإيرانية.

ولد في بغداد سنة (١٩٧٣م)، درس علم الاجتماع في طهران، ثم انتقل إلى سوريا للعيش والعمل بها سنة (١٩٩٩م)، وبعد الثورة السورية عام (٢٠١١م) رجع إلى العراق وأقام في بغداد.

له أعمال عديدة في مجالات مختلفة أهمها «الترجمة» الأدبية من الفارسية إلى العربية والعكس، من ترجماته المتميزة رواية «بائع الأحلام» للروائي الإيراني محمد قاسم زاده. أصدر في العام (٢٠١٥م) رواية باسم «ريمورا» كما ترجم أكثر من ثمانية أعمال أدبية عربية إلى الفارسية.

(*) مشرف تربوي في جمعية لتعليم القرآن.

(١) على الرغم مما تسرَّب من معلومات ومؤشرات عن علاقات إيران و«حزب الله» «بالكيان الصهيوني»، ودورهما في القضاء على المقاومة الفلسطينية وتحجيم المقاومة في جنوب لبنان، إلا أنَّ الكتاب يُعدُّ مادّة توثيقية مهمة، وهو جيدٌ في بابه، فاخترنا تقديمه مع معرفتنا بما يمكن أن يثيره انتماء الكاتب من تساؤلات.

(٢) ينظر: مقابلة مع الكاتب في مجلة المونيتور (AL-MONITOR) بعنوان: كاتب عراقي يعرف العالم العربي إلى الأدب الفارسي، بتاريخ ١٦-٧-٢٠١٥م.

عمل أكاديميًا ومدرسًا للغة الفارسية في سوريا، وأصدر أربع مجموعات شعرية باللغة الفارسية. كما أنه يعكف حاليًا على القيام بدراسات مكثّفة حول الفلسفة الإيرانية.

التعريف بالكتاب:

يقع الكتاب في (٢٥٦) صفحة من القطع المتوسط ويحمل عنوان: التطبيع استراتيجية الاختراق الصهيوني، وطبعت الطبعة الأولى عام (١٩٨٩م) في دار الأمان للطباعة والنشر، بيروت.

لمحة عن الكتاب:

يقدم الكتاب للقرّاء صورة متكاملة الجوانب ورؤية شاملة لمسيرة التطبيع التي يجري تنفيذها في منطقتنا، وقد امتاز الكتاب بغزارة المعلومات والإحصاءات، وهو مقسم إلى سبعة فصول رئيسية:

ابتدأها الكاتب بمقدمة أوضح فيها أن المسلمين ابتلوا في عصرنا بكارثتين كان لهما الأثر البالغ في حياة الذل والاستعباد التي تعيشها الشعوب الإسلامية اليوم.

- الأولى: إلغاء الخلافة التي شكلت البداية المؤلمة لفقد المسلمين هويتهم وانقسامهم على أنفسهم، واحتلال بلدانهم.
- والثانية: اغتصاب فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني على أرضها، وما كشفه ذلك من حقائق ما يسمى بالثورية والوطنية الزائفة على يد الأحزاب المنحرفة التي أعلنت نفسها وصيةً على الشارع الإسلامي، وستار الصمود والتصدي والممانعة، فعرّت كل الأنظمة العربية بلا استثناء.

> **ظهرت البوادر الأولى لمصطلح «التطبيع» بعد موافقة الدول العربية على قرار الأمم المتحدة رقم (٢٤٢) القاضي بالاعتراف بحدود آمنة «لإسرائيل» مقابل انسحابها من الأراضي التي احتلّتها عام (١٩٦٧م)، في أوّل تراجع عربي عن الموقف الرافض للكيان المحتل**

الفصل الأول - العلاقات العربية اليهودية بين المقاطعة والتطبيع:

حدث تغير كبير في العلاقات العربية الإسرائيلية، بدءًا بالإجماع على رفض الاعتراف بالعدو من (١٩٤٨م) حتى هزيمة (١٩٦٧م)، باستثناء موقف الرئيس التونسي بورقيبة، ومقاطعة عربية شاملة (لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضات)، ثم إنشاء جهاز المقاطعة العربية لإسرائيل بقرار الجامعة العربية (١٩٥١م)، وقد احتوى القانون في مواده وأنظمته على وقف التجارة مع الكيان من خلال الحصار، ومنع الاستيراد والتصدير، ونظام القوائم السوداء للشركات والمنشآت التي تتعامل مع الكيان، ووضعت مواد تفصيلية للقرار، وأدرجت أسماء الشركات والكيانات والمؤسسات التي يطبق عليها.

لكن كل هذا الجهد لم يمنع تسرُّب بعض البضائع «الإسرائيلية» للدول العربية والعكس؛ حيث كان البترول يُسرَّب عبر ناقلات طرف ثالث في عرض البحر، وكانت البضائع «الإسرائيلية» تُسرَّب إلى بعض الدول العربية عبر مراكز إعادة تصدير إقليمية كاليونان وقبرص، أو عالمية مثل تايوان وهونك كونغ.

ثم ظهرت البوادر الأولى لمصطلح «التطبيع» بعد موافقة الدول العربية على قرار الأمم المتحدة رقم (٢٤٢) القاضي بالاعتراف بحدود آمنة «لإسرائيل» مقابل انسحابها من الأراضي التي احتلّتها عام (١٩٦٧م)، في أوّل تراجع عربي عن الموقف الرافض، وفي تلك الأجواء جاءت زيارة الخيانة للسادات للكيان الغاصب، معلنةً بداية حقبةٍ جديدةٍ من العلاقات والتي أطلق عليها تطبيع العلاقات، في مغالطة واضحة لمعنى التطبيع الذي أكثرت «دولة العدو» من استخدامه بمعنى عودة العلاقات إلى طبيعتها وسابق عهدها، ويعنون بذلك زوال العداوة وإحلال السلام مكانها، بينما العلاقة الطبيعية مع المعتدين هي الحرب!

تلا ذلك اتفاقية كامب ديفيد مع نظام السادات، التي جاء في الفقرة (ب) من مادتها الثالثة: «يُقرُّ الطرفان ويحترم كل منهما حقَّ الآخر في أن يعيش في سلام داخل حدوده الآمنة والمعترف بها».

وقد اجتهدت «دولة العدو» في نقل هذه الاتفاقية للواقع وتطبيقها ببرامج كثيرة.

ويمكن تلخيص نظرة «إسرائيل» للتطبيع بأنها مرحلة من مراحل السيطرة اليهودية على العالم العربي، في مختلف المجالات.

> **على الرغم من حالة المقاطعة المعلنة من الأنظمة العربية لـ «الكيان الصهيوني» إلا أن هذه الأنظمة كانت تتسابق في الخفاء لمدِّ يد التواصل معه**

الفصل الثاني - تاريخ الاتصالات الإسرائيلية العربية:

على الرغم من حالة المقاطعة المعلنة من الأنظمة العربية لـ «الكيان الصهيوني» إلا أن هذه الأنظمة كانت تتسابق في الخفاء لمدِّ يد التواصل معه، ويمكن تلخيص أهم تلك الاتصالات فيما يلي:

١. الاتصالات الإسرائيلية الأردنية:

بدأت في عهد الملك عبدالله بن الشريف حسين، أول ملوك الأردن، وتوقيع اتفاقية عدم اعتداء لخمس سنوات (١٩٥٠)، ضم بعده بشهر الضفة الغربية إلى مملكته مما ضَمِن لـ «دولة العدو» أمن حدودها الشرقية ووقوف قواته العسكرية حارس أمن لها، وتابع هذه الاتصالات من بعده حفيده الملك حسين، بدأت في بريطانيا عام (١٩٦٣م) وتتابعت اللقاءات بين أعوام (١٩٦٧ – ١٩٧٠م) وعددها أكثر من ٢٣ لقاء، كانت تمهيدًا لجعل الوضع طبيعيًا بين البلدين، ولزيارات متبادلة وبعض الاتفاقيات الاقتصادية.

امتدت آثار هذه اللقاءات وما نتج عنها من اتفاقات للكثير من الأوضاع والأحداث، ولعل من أهمها: أحداث أيلول ١٩٧٠م ضد المنظمات الفلسطينية في الأردن، وتأمين مناطق غور الأردن من هجمات الفدائيين ضد الكيان.

٢. الاتصالات الإسرائيلية - المغربية:

لعب النظام المغربي دورًا خطيرًا لإقامة علاقات بين اليهود والعرب وتنسيقها، رغم كونه أبعد بلاد العرب عن الكيان، ورغم أنه ليس من دول المواجهة، فهو من أكثر الأنظمة العربية تواصلاً وتنسيقًا مع الكيان.

ورغم السرية التي فرضها المغرب على تحرُّكاته، إلا أنه يمكن بلورة دوره في التمهيد لعلاقات العرب مع الكيان الصهيوني بكونه ساحة مهمة للقاءات السرية الفلسطينية الأمريكية، إضافة إلى الدور الخفي في التهيئة لمعاهدة كامب ديفيد، وذلك بإشراف الملك الحسن الثاني شخصيًا والسبب:

- ارتباط الملك الحسن بأمريكا وحاجته لدعمها.
- حاجة المغرب إلى المساعدة من الدول الأوروبية.
- وجود أكبر تجمع لليهود فيها.
- نفوذ اليهود المغاربة في الكيان.

وقد مرَّت الاتصالات المغربية الإسرائيلية بمراحل ثلاث: (السرية، والعلنية، والرسمية)، وشملت هذه الاتصالات مختلف مناصب الدولة من المسؤولين «الإسرائيليين» والمغاربة، سواء كانت في المغرب أو «إسرائيل»، أو في بلدان أخرى.

وحظيت هذه الاتصالات باهتمام ورعاية الدول الغربية، ونتج عنها الكثير من الخطوات اللاحقة، كما أنها حظيت بموافقة ودعم الزعماء العرب

٣. الاتصالات الإسرائيلية - اللبنانية:

ينبع الاهتمام الإسرائيلي بلبنان من أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه الأقليات الطائفية في ضمان هيمنتهم على المنطقة، وكان أول اتصال مع الموارنة ممثلين برئيس لبنان إميل إده والبطريرك أنطوان عريضة، في اجتماع مع حاييم وايزمان (بيروت ١٩٣٤م)، وبرزت فكرة اعتراف الموارنة بفلسطين بلدًا قوميا لليهود، مقابل أن تعترف «إسرائيل» بلبنان وطنًا قوميًا للمسيحيين، وعملوا على تسريب أسلحة للكيان قبيل حرب عام ١٩٤٨م.

ثم تتابعت اللقاءات مع الموارنة وخاصة مع ذراعها العسكري (حزب الكتائب)، الذي لم ينكر هذه اللقاءات وعلى لسان كثير من مسؤوليه، ولعل ذلك ينبع من كون الطرفين يناصبان الإسلام العداء.

ووصل التنسيق ذروته بين عامي ١٩٧٥-١٩٧٦م والذي تمثل بدعم الكتائب في حربها التي أشعلتها بلبنان، وما نتج عنها من عمليات إبادة للوجود الفلسطيني خصوصًا والمسلم عمومًا، وتنصيب أمين الجميّل رئيسًا على الدولة.

٤. الاتصالات الإسرائيلية - الفلسطينية:

انتقلت عدوى اللقاءات مع الكيان الصهيوني إلى منظمة التحرير الفلسطينية منذ (١٩٧٧م)، فخرج الإعلان السياسي الصادر عن الدورة (١٣) للمجلس الوطني الفلسطيني، وسبقته لقاءات بين الكيان والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين (١٩٦٩م).

وقبل ذلك لم تُطرح فكرة اللقاء مع العدو، حتى جاء المجلس الوطني (١٣)، فتحدَّث أبو مازن (محمود عباس) عضو اللجنة المركزية لفتح، وعضو اللجنة التنفيذية، مطوّلاً عن اللقاء مع العدو، وأصغى له الجميع بانتباهٍ شديد، تلاه اعترافٌ بوجود لجنة من فتح برئاسته بدأت بالفعل تلك الاتصالات.

- **الاتصالات المباشرة السرية:** وكانت تجري بسرية وتكتم، ولعب في تهيئة أجوائها شخصيات على مستوى ملوك ورؤساء ورؤساء وزارات، وكانت على نوعين:
  - لقاءات الأفراد: أكثر من ٢٥ لقاء.
  - لقاءات الوفود: ١٧ لقاء، استمر بعضها أيامًا.

قدمت المنظمة مشروع معاهدة (١٩٧٦م) تقترح فيه وقف حالة العداء بين الطرفين، وموافقة إسرائيل على إنشاء دولة فلسطينية فوق أراضي ١٩٦٧م، وتنظيم أوضاع اللاجئين وأمن الحدود. مع إدانة من المنظمة لعمليات خطف الطائرات، على الرغم من استمرار الاعتداءات الصهيونية.

- **الاتصالات العلنية:** انعقد المجلس الوطني الفلسطيني (١٧) عام (١٩٨٤م)، وسُمح بعقد الحوار مع أي جهة يهودية، بقرار يشرعن هذه المرحلة، وتولى ياسر عرفات المهمة بنفسه بعد الذهاب إلى تونس.

وزاد عدد اللقاءات على (٢٨) لقاءً، على مختلف المستويات من الجانبين، بين أعوام (١٩٧٣ – ١٩٨٧م) مع تمسك الجانب الإسرائيلي بحق قيام إسرائيل وعاصمتها القدس.

٥. الاتصالات الإسرائيلية - المصرية:

رغم تفاخر السادات بزيارته الخيانية وتحديه، إلا أن عبدالناصر سبقه لعقد لقاءات مع العدو لكنه كان أجبن من السادات، فكانت علاقاته مع العدو طيَّ الكتمان رغم تعددها منذ (١٩٥٣م) وقبوله بالقرار (٢٤٢) ومشروع روجرز، ولعل

ذلك بسبب اغتيال ملك الأردن عبدالله بن الشريف حسين، وخشية الحكام من كشف علاقاتهم السرية مع الكيان.

استكمل السادات المشروع، وبدأ بعمليات غسيل دماغ إعلامي لترويض الشعب المصري، منها: تقطيع علاقاتهم بالعرب، وإيهامهم بالتحسُّن الاقتصادي حال السلام.

ثم طرَح مبادرته المفاجئة في مجلس الشعب عام (١٩٧٧م)، حيث أعلن فيها رغبته بزيارة القدس رغم محاولاته منذ (١٩٧٢م) بوساطة رومانية، واستمرت اللقاءات حتى خلال حرب عام (١٩٧٣م).

يتلخص التصور «الإسرائيلي» لتطبيع العلاقات مع الدول العربية في اعتبار التطبيع ثمنًا للانسحاب من الأراضي المحتلة وربط ذلك بالحصول على معاملة تفضيلية، وتثبيت السلام معها، وخدمة المصالح

الفصل الثالث - مظاهر ومجالات التطبيع:

يدور التصور «الإسرائيلي» لتطبيع العلاقات مع الدول العربية حول الآتي:

- التطبيع ثمن الانسحاب من الأراضي المحتلة.
- بناء علاقات مع العرب تتمكن من تثبيت السلام، وخلق قاعدة من المصالح المشتركة تحميها قاعدة اجتماعية.
- ربط الانسحاب بالحصول على معاملة تفضيلية (سياحة، نفط، تجارة ... إلخ).
- نتائج التطبيع يجب أن تلتقي مع مصالح «إسرائيل» الحيوية.

أبرز مظاهر التطبيع مع مصر:

يُعدُّ التطبيع مع مصر صورة مصغرة لما سيتم في المستقبل في حالة توقيع اتفاقيات، لذا لابد من وقفات مع أبرز مظاهر التطبيع معها:

أ. التطبيع السياسي:

تعتبر عملية التفاوض السياسي جزءًا أساسيًا من التطبيع، وبعد زيارة السادات والانسحاب المرحلي إلى خط العريش تبادل الطرفان الزيارات الرسمية والتمثيل الدبلوماسي.

- **أجهزة التطبيع السياسي:**
  - التمثيل الدبلوماسي: وتوِّج برفع علم «إسرائيل» على سفارتها في القاهرة (١٩٨٠م).
  - التمثيل القنصلي: الاتفاق على فتح قنصليتين في الإسكندرية وشرم الشيخ.
  - اللجنة العليا للتطبيع: ولديها مهمتان، الأولى توجيه مفاوضات التطبيع، والثانية مراقبة الانسحاب النهائي «لإسرائيل».
  - تنظيمات شعبية للتطبيع: فشلت معظم محاولات تأسيسها، بسبب رفض الشعب المصري المسلم، لكن نجح النظام في إنشاء منظمتين.
- **لقاءات القمة:** بين رئيس مصر ورئيس وزراء إسرائيل، عددها (١٤) لقاءً، (٢) في عهد مبارك والباقي في عهد السادات.
- **العلاقات البرلمانية والحزبية:** أصرَّت «إسرائيل» على زيارة وفود برلمانية للكنيست ومكتب رئيس الوزراء لإعطاء اعتراف عملي بوضع القدس تحت سيادتها، وقد بدأت بوفد برلماني مصري (١٩٨١م).
- **العلاقات العسكرية:** حرص الجانبان على تطبيع العلاقات بين القوات المسلحة، ومن ذلك: عقد لقاءات بين الجرحى، وزيارات متبادلة لقطع من الأسطول البحري وبين القادة العسكريين للمصانع والكليات العسكرية.

ب. التطبيع الاقتصادي:

تنظر إسرائيل بطمع إلى خيرات العالم العربي وموارده الهائلة، وترى فيه حلاً لمشاكلها الاقتصادية، وسوقًا ضخمةً للتصدير، وقد وُقِّع بذلك بروتوكول اقتصادي ملحق باتفاقية كامب ديفيد، وأصبحت «إسرائيل» الدولة الأولى بالرعاية.

ج. التبادل التجاري:

عقدت اتفاقية مع مصر (١٩٨٠م) من (١١) مادة، كانت إسرائيل الرابح الأكبر فيها، فتنشر إعلاناتها التجارية في الإعلام المصري، وتحصل على

التسهيلات (لرجال أعمالها، الاستيراد والتصدير)، والمشاركة في المناقصات والمعارض الزراعية.

د. قطاع الطاقة والنفط:

كان الاهتمام الإسرائيلي واضحًا بالنفط، كونه أهم موارد العرب، فتأخر الانسحاب من سيناء الغنية بالنفط، لتنال إسرائيل ربع احتياجها السنوي بسعر مخفض.

ه. النقل والمواصلات:

نصت المعاهدة على حرية التنقل للأشخاص والآليات، وعقدت الاتفاقيات في مجالات النقل البري والبحري والجوي والاتصالات.

و. السياحة:

وعليها يعلق الطرفان آمالهما بالفائدة، فقُدمت كل التسهيلات للسياح، فتدفق آلاف السياح اليهود، مقابل (١٥٠٠) مصري معظمهم من الرسميين والصحفيين.

ز. المشروعات الزراعية:

طمع اليهود بمياه النيل مقابل خبرتهم الزراعية، وطرحوا عدة مشاريع لنقل مياه النيل إلى أرضهم.

> **أدرك قادة الاحتلال أهمية التأثير الثقافي على الشعوب، فاشترطوا إزالة كل ما يُظهر الصهيونية عدوةً للأمة العربية والإسلامية، ونزع العداء «لإسرائيل» من العقل العربي**

ح. التطبيع الثقافي:

أدرك قادة الاحتلال أهمية التأثير الثقافي على الشعوب، فاشترطوا إزالة كل ما يُظهر الصهيونية عدوةً للأمة العربية والإسلامية، ونزع العداء لإسرائيل من العقل العربي. ولتمكين ذلك جرت الخطوات الآتية:

- إنشاء المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة.
- تبادل الزيارات بين أساتذة الجامعات.
- إقامة المؤتمرات العلمية.
- الاهتمام الكبير بالمجال التعليمي والتربوي: كمنح للطلاب المصريين والإسرائيليين، والاستعانة بمدرِّسين مصريين في اللغة العربية، ودورات مشتركة للمعلمين، وزيارات لمسؤولي التعليم، وتُوِّج ذلك بمراجعة مناهج التعليم المصرية لتعكس «عصر السلام».
- توقيع اتفاقية في مجال الرياضة والشباب (١٩٨١م)، وتبادل الزيارات واللقاءات.
- ترويج الفكر الصهيوني، من خلال الفكر والأدب، ومعارض الكتب.
- الاهتمام بالموسيقى والغناء والسينما والتلفزيون.

الفصل الرابع - أهمية التطبيع للكيان الصهيوني:

منذ التوقيع على معاهدة الاستسلام، والعدو الإسرائيلي يركِّز جهوده ومساعيه على تسريع عملية التطبيع بينه وبين الأنظمة العربية. ورغم إخراج مصر الدولة الكبيرة من ساحة المواجهة الحربية، فقد حرصت إسرائيل على الاستعداد للحرب رغم مناداتها بالتطبيع والتقارب مع العرب، وكانت تستغل أيَّ فرصةٍ للتوسُّع والحرب لما له من فوائد اقتصادية للكيان، بسبب تدفُّق المساعدات الخارجية عليه، ويمكن القول إن أحد أهم أهداف الحروب الإسرائيلية هو إرغام الدول العربية بقبول الكيان وفرض ذلك أمرًا واقعًا.

ويلاحظ أن الإسراع في التطبيع يعود لفوائده التي يدرها على الكيان الغاصب ومن ذلك:

- كسر الحاجز النفسي بين المسلمين واليهود، بحيث يتقبل المسلمون وجود دولة اليهود في فلسطين كأي دولة أخرى في المنطقة.
- إلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية، وبالتالي زيادة ناتجها القومي، وفتح الباب أمام الشركات التي تحسب حساب المقاطعة.
- زيادة أعداد المهاجرين اليهود، بعد أن كانت منخفضة بسبب الحروب وانعدام الأمن.
- استثمار النفط العربي، وخاصة بعد عودة سيناء.
- استثمار الثروة المائية العربية، والتخطيط للاستفادة من مياه النيل واليرموك والليطاني.

الفصل الخامس - مخاطر التطبيع على المنطقة:

تميزت مشاريع التسوية مع «إسرائيل» بميزتين هما:

مخاطر التطبيع على المنطقة

» الإيقاع السريع والاهتمام العالمي، لحل «مشكلة الشرق الأوسط» كما يسمونها.

» التنازلات الدائمة والمستمرة من العرب والفلسطينيين.

وحتى يتم تحقيق التطبيع مع اليهود وتتقبل الشعوب العربية وجودهم لا بد من ثلاث خطوات:

١. إلغاء مبدأ العداوة مع اليهود.

٢. تجريد الشعب من إرادة القتال، ليكون فريسة سهلة عند الحرب.

٣. تكريس الانفصال بين الدول العربية.

ووضع اليهود شروطًا للتعايش مع العرب، أهمها:

أ. استغلال الدين وتطبيعه:

عن طريق الكتّاب والصحفيين، الذين يسوقون الأدلة والبراهين دفاعًا عن المغتصبين، والزعماء المطبّعين، فالدين الإسلامي هو الأخطر على مشروع «دولة العدو»؛ لذا طالبت الدولَ المطبّعة بتعديل المناهج الدراسية، وملاحقة الجماعات الإسلامية، ومراقبة البرامج الدينية التلفزيونية، ونشر فكرة وحدة الأديان.

حتى يتحقق التطبيع مع اليهود وتتقبل الشعوب العربية وجودهم لا بد من ثلاث خطوات:
١. إلغاء مبدأ العداوة مع اليهود
٢. تجريد الشعب من إرادة القتال، ليكون فريسة سهلة عند الحرب
٣. تكريس الانفصال بين الدول العربية

ب. الاختراق الثقافي والفكري:

عبر الاتفاقيات الثقافية، التي كانت أول البنود تطبيقًا في أي معاهدة، من خلال:

» إعادة النظر في البرامج الدراسية: فجعلت الأنظمة حارسًا للصهيونية وأفكارها الخبيثة.

» نشر الثقافة والآداب اليهودية: بإنشاء المراكز الثقافية والعلمية والأكاديمية، ومخرجاتها من برامج وخدمات وتسهيلات للباحثين الصهاينة.

ج. حرية النشاط التجسسي:

والذي استغلته مخابرات العدو عبر ستار التطبيع، فنشرت أنشطتها التخريبية بالاعتماد على عملائها من عرب ويهود، وخاصة: السفارات

والقنصليات، والدبلوماسيين، والمعهد الأكاديمي الإسرائيلي، والشركات والوكالات (سياحية، استشارية، نقل)، والسياح والقوات الأمريكية.

د. إغفال حقوق الشعب الفلسطيني:

بالتركيز على المكاسب المصرية من معاهدة السلام، والتنازلات المستمرة، وإغفال الفلسطينيين والقدس بالكلية.

ه. تقييد قدرة العرب الدفاعية:

بالاتفاقيات المقيدة لحريتهم في ممارسة السيادة الكاملة على المناطق بعد الانسحاب الإسرائيلي (مصر ولبنان مثالاً)، وتوفير مزيد من الأمن لإسرائيل، وإضعاف العرب، ومراعاة سلامة وأمن مستوطناتها.

و. ضمان أمن وسلامة اليهود:

نصت معاهدة كامب ديفيد على أنه «تنتهي حالة الحرب بين الطرفين، ويقام السلام بينهما عند تبادل التصديق على هذه المعاهدة». عبر سلسلة إجراءات تبدأ بالطفل وتنتهي بكبار المثقفين والاقتصاديين والسياسيين.

ز. تمزيق الجبهة العربية:

عن طريق حظر الدخول في أي معاهدة تتعارض مع المعاهدة، وهيمنتها على المعاهدات والتفاهمات السابقة وخصوصًا العربية، وبالتالي تحطيم التزامات مصر العربية والدولية.

ح. إشاعة الفساد:

حرصت دولة العدو من خلال منافذ الاتصال والتواصل على نشر الرذيلة في البلدان العربية من خلال (الكتب، والإذاعة، والتلفزيون، والأفلام الساقطة، ونشر الأمراض، والمخدرات، والجنس)؛ لإلهاء الشعوب، وإضعاف الأجيال.

ط. تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين:

يذكر المفكرون اليهود أنَّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي المشكلة الثانية للكيان بعد الأمن، فمستقبل الدولة «الإسرائيلية» قائم على استمرار الهجرة، فنشط اليهود في تشجيع وترتيب الهجرة وتقديم المغريات للمهاجرين.

كما عملوا على مكافحة ظاهرة الهجرة المعاكسة التي تهدد الكيان، ووضعوا القيود على اليهود العائدين إلى الدول المطبّعة.

الفصل السادس - ملامح الموقف الشعبي من التطبيع:

مع كل الجهود الرسمية المبذولة للتطبيع، فقد واجهت مقاومة شعبية عامة، هذه ملامحها:

- المقاطعة الشعبية الشاملة: وهذا ما أكَّده وأجمع عليه كبار المسؤولين والدبلوماسيين اليهود، واستطلاعات الرأي، والبعثات السياحية؛ الذين أكدوا على الرفض الشعبي الكامل لأي مظهر من مظاهر التطبيع، على عكس ما يروِّج له إعلام الذل والهوان (إعلام السادات).
- معارضة النقابات المهنية: التي طالبت بمقاطعة شاملة، من نقابات واتحادات (المحامين، والصحفيين، واتحاد العمال، وأعضاء تدريس الجامعات، والهندسية والمعدنية، والمثقفين المصريين، والجمباز واليد والسباحة ...).
- المظاهرات والمسيرات: في كل مناسبة شاركت فيها إسرائيل، ومن كل الفئات المصرية، ووصل بعضها لآلاف المشاركين.
- إحراق العلم الإسرائيلي: والذي عمَّ كل مدن وبلدات مصر، ومن كل فئات المجتمع.
- الإرهاب النفسي: عبر مكالمات وخطابات تهديد، وصلت للسفير الإسرائيلي نفسه.
- الاحتجاج الفردي المسلح: عبر عشرات الحوادث من شباب عرب، والذين تعرَّضوا للمحاكمة في بلدانهم وأُعدم بعضهم.
- المقاومة العسكرية المنظمة: والتي أدخلت الرعب في قلوب الدبلوماسيين اليهود، وذلك عبر: (عمليات اغتيال نجح بعضها، وتفجير القنصلية والسفارة الإسرائيلية، وغير ذلك).
- تصفية رأس التطبيع: وذلك باغتيال السادات، فكان أقوى ردٍّ على رفض التطبيع، ودليلاً قاطعًا لرفض الشعب المصري لأي مظهر من مظاهر التطبيع، وقد تمت محاكمة أبطال العملية وأعدموا، لكن العملية ألقت الرعب في قلوب المطبعين ومن سار على نهجهم.

الفصل السابع - مستقبل التطبيع:

لا يخفى على عاقل أن هدف اليهود هو إنشاء دولتهم المزعومة، من الفرات إلى النيل، ولم يتوقف هذا الهدف نتيجة لقوة الأنظمة العربية، بل بسبب مشاكل

اليهود (الأمنية، الهجرة، الاقتصادية، السكانية)، وقد وجد اليهود مكاسب كبيرة من اتفاقهم مع مصر، فشجَّعهم ذلك على إبرام اتفاقات وتفاهمات مع بقية الدول العربية، وذلك مقابل فتات يجنيه المطبّعون.

العلاقات المصرية الإسرائيلية:

شهدت هذه العلاقات ثلاث مراحل:

١. **مرحلة الازدهار والنمو: من ١٩٧٩/٠٣/٢٦م حتى تاريخ ١٩٨٢/٠٩/٢١م:**

شهدت العلاقات فيها توسعًا ملحوظًا، توج بتبادل السفراء بين البلدين (١٩٨٠/٠١/٢٦م)، ومن ملامح هذه الفترة:

- **العلاقات الاقتصادية:** أنهيت المقاطعة الاقتصادية ووقعت الاتفاقيات الاقتصادية، وغزت البضائع الإسرائيلية والوفود السياحية مصر.
- **العلاقات الثقافية:** وقعت اتفاقية نصت على التعاون في المجالات الثقافية والعلمية والفنية وتبادل البرامج التلفزيونية والإذاعية والأفلام، وأنشئ المركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة.
- **العلاقات الدبلوماسية:** افتتحت السفارات في كل من البلدين وتم تبادل السفراء.

٢. **مرحلة تجميد التطبيع (١٩٨٢/٠٩/٢١- ١٩٨٦/٠٩/١١م):**

أحرجت مجازر (صبرا وشاتيلا) الرئيس المصري حسني مبارك، فسحب سفيره، وأطلق يد الصحافة في نقد الاحتلال، واشترط عودة طابا، وسحب القوات الإسرائيلية من لبنان، ووقف الاستيطان في الضفة الغربية وغزة، مقابل عودة التطبيع.

٣. **مرحلة الانفراج بتاريخ: (١٩٨٦/٠٩/١١م):**

وذلك بعد فوز بيريز بالانتخابات (١٩٨٤م)، فبدأ بالتقارب مع مصر، والتقى مبارك (١٩٨٦م)، فعادت الأمور لمجاريها ونال اليهود مكاسب أكبر مما نالوه قبل تجميد التطبيع.

العلاقات الأردنية - الإسرائيلية:

أبدى الملك حسين استعداده لتوقيع معاهدة سلام مع الكيان الصهيوني فور انسحاب الأخير من الضفة، ورغم رفض اليهود، استمر الملك في إرساء دعائم نفوذه في الضفة، من خلال إجراءات (في الاقتصاد، والزراعة، والنقل، والاتصالات الدبلوماسية، وإنشاء محطات الهاتف).

العلاقات المغربية - الإسرائيلية:

أعلن الملك المغربي الحسن الثاني لقاءه رئيس وزراء العدو (بيريز) لتخفيف عزلة الرئيس المصري، وتشجيع ملك الأردن على مبادرته، وبالرغم من رفض اليهود الانسحاب من أراضي ١٩٦٧م، استمرت محاولات التقرب من إسرائيل، للحصول على مساعدات أمريكية، فوجّه باستمرار الزيارات المتبادلة بين الطرفين وعلى مستوى عدة قطاعات في (الزراعة، التجارة، السياحة، النقل، رجال الأعمال، الثقافة).

> **برهنت الشعوب المسلمة على أنها شعوب ترفض الذل والهوان والظلم، رغم المحاولات العديدة لتدجينها وإبعادها عن دينها، فأفشلت كل المخططات التي حاكها العدو مع أذنابه ممن يسعون للتطبيع معه والترويج لديمقراطيته الكاذبة**

استمرار الرفض الشعبي للتطبيع:

رغم مرور ٨ سنوات على توقيع معاهدة السلام التاريخية بين مصر والكيان الصهيوني (وقت تأليف الكتاب)، فلا تزال العلاقات هشة بين البلدين، وعلى الرغم من المحاولات الحثيثة التي بذلتها إسرائيل للتخفيف من الضغط الشعبي المصري، ورغم تهديدات مبارك عبر أبواقه الإعلامية أنه سيقمع هذه المشاعر بشكل «مخيف وخطير»، فقد وقف الشعب المصري المسلم حجر عثرة في وجه كل أشكال التطبيع، وبرهنت الشعوب العربية والإسلامية في كل مكان على رفضها القاطع للتطبيع، وأنها لن ترضخ للمحتل، ولن تصافح القاتل، مهما بلغ إرهاب الأنظمة الحاكمة.

لقد برهنت الشعوب المسلمة على أنها شعوب حية، ترفض الذل والهوان والظلم، رغم المحاولات العديدة لتدجينها والعمليات المتكررة لإبعادها عن دينها ومبادئها، فأفشلت كل المخططات التي حاكها العدو الصهيوني مع أذنابه ممن يسعون للتطبيع معه، والترويج لديمقراطيته الكاذبة، وظلت فلسطين وعاصمتها القدس إحدى أهم القضايا لدى الشعوب المسلمة إن لم تكن الأولى.

ثمرة عاجلة

أ. أحمد أرسلان

احتاجت والدتي الغالية إجراء عمليةٍ جراحيةٍ في عينها، وبسبب ارتفاع التكلفة اضطررت لأكلم بعض أصدقائي من الأطباء حيث تعيش الوالدة علَّهم يجدوا لنا مشفى يقدم تخفيضًا لها.

وما هي إلا أيام حتى بشَّرني أحدهم أنَّ إحدى الجمعيات الخيرية تكفلت بالعملية كاملة وبمتابعة العلاج، حمدت الله وشكرت أصدقائي على بادرتهم الطيبة. ثم دخلت لحساب الجمعية أتصفحه وشدني في تعريفها أنها: «جمعية متخصصة في تنسيق العلاج الطبي للأيتام والأرامل والمحتاجين»، فسألت وتتبَّعت الموضوع حتى عرفت أن هذه الجمعية بُنيت من بذرة، وهذه البذرة كانت (قسم تنسيق علاج المحتاجين) في جمعية لرعاية الأيتام كانت لي مساهمةٌ في تأسيسه وإدارته في وقت مضى.

فرحتُ فرحًا كبيرًا كيف أنَّ هذا القسم الصغير الذي كانت ميزانيته محدودة بالآلاف سنويًا، أصبح جمعية كبيرة ميزانيتها السنوية بالملايين، وما زالت في نمو.

أحسِن في عملك، وأخلص فيه النية، فقد ترى ثماره يومًا ما ولو بعد عشرين عامًا! وسترى ثماره في الآخرة يقينًا.

القراءة

أ. لينة درمش

القراءة نشاط مهم للغاية، ولا يكاد يستغني عنه أحد، والدليل على أهميتها أن أول كلمة نزلت في القرآن الكريم هي كلمة «اقرأ» عندما نزل جبريل عليه السلام بالوحي على رسولنا صلى الله عليه وسلم.

وهي تحسِّن من طريقة التفكير، وتطور من أسلوب الحديث، فهي تكسبك كلمات ومصطلحات لغوية جديدة، ومن الممكن تقوية اللغات وزيادة الثروة اللغوية من خلال قراءة الكتب بلغات مختلفة، وحتى تشعر بالمتعة الحقيقية وتستمر بالقراءة بشغف يجب عليك أن تختار الكتب المناسبة لعمرك والموضوعات التي تجذبك، والكاتب صاحب الأسلوب المفضل لديك.

والقراءة مفيدة للصحة النفسية؛ فهي تقلل من التوتر، وتعالج ضعف الذاكرة، وتساعد القارئ على التخلص من ضغوطات الحياة ومشاكلها، وتأخذه في عالم من الخيال والمتعة، خصوصًا عندما تغوص في الأفكار والأحداث، وتبدأ في تخيل الشخصيات والوقائع والأماكن، وحينها ستشعر بمتعة القراءة.

ويمكن تعزيز عادة قراءة الكتب عند الأبناء بأخذهم إلى المكتبة وجعلهم يختارون الكتب التي يفضِّلونها، وجعل الكتب قريبة من متناول يدهم، وفي مكان بارز، وإذا اعتاد الأبناء على القراءة في الصغر فهذه لن تفارقهم مهما تقدم بهم العمر.

إطلالة من حراء

أ. سليم جبارة

إنَّ المجاهد لا يصفو له جهاده حتى يجمَعَ إلى ذلك ساعاتٍ من الخلوة يُحاسب فيها نفسه، ويؤنِّبها ليؤدبها، وينقِّيها ليرقيها، فالحمل ثقيل والطريق شاق وطويل.

حراء نقطة البداية التي تذكرنا بقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف هداه ربُّه لهذه الخلوة كي تصفو نفسه ويستعدَّ ويتزوَّدَ لمواجهة العواصف.

دخول حراء هو الزاد الذي لا يستغني عنه طالب الآخرة خاصةً إذا كان مجاهدًا يمرُّ في طريقه بالأهوال والمخاوف، وربما رأى بعينه مَن حاد بعد رشاد.

فيدخل الغار لينطرح بين يدي ربه مُقلّبًا خدَّيه على أرض العبودية والتذلُّل، سائلاً مولاه أن يرزقه الثبات حتى الممات، وكم رأينا من شبابٍ فاتهم دخول الغار وظنُّوا الثباتَ سهلاً ولم يرابطوا على ثغور قلوبهم فتسلَّل إليها ما لم يكن بالحسبان فتاهوا بعد ما عرفوا وبذلوا.

وإن نسيت فلا أنسى ذلك الشاب الذي التقيتُه فحدَّثَني عن بطولاته، وأنه ما من شبرٍ في جسمه إلا وفيه خدشٌ أو شظيّة.

ثم ماذا؟! تنكَّب عن الطريق بعد هجرته ملتفتًا للدنيا وشهواتها، بل وأشدَّ من ذلك.. هنا صرخت من أعماق أعماقي: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

دور المثقف

أ. موفَّق شيخ إبراهيم

المثقف داعية استنارة، ورسول حضارة، وحامل لواء الحق بجدارة. ينأى بنفسه عن تجاذبات السياسة، وشبهات المغرضين، وترَّهات المرجفين.

لكنه في الوقت ذاته يصدع برأيه الذي يراه صوابًا، دون رهبة أو خوف؛ ودون مداهنة أو نفاق. يبادر بطرح أفكاره قبل غيره من الناشطين على الساحة. كيما يحول دون تمكين الطابور الخامس، أو أنصاف المثقفين، من ارتقاء المنصَّة وصعود سلَّم التصدُّر والريادة.

ينزل من برجه العاجيِّ، ليعايش المجتمع بآلامه ومعضلاته، وينير له الطريق؛ بعيدًا عن الأنا وتقديس الذات.

إنه من النخبة التي يعوِّل عليها الآخرون. وهذه النخبة تنتظر المزيد من انضمام المزيد إليها، والانتظام في حلقاتها، عساها تشكل قوة ناعمة، تنقل المجتمع نقلةً بعيدةً من الارتكاس التاريخي المعاصر؛ إلى النهوض الحضاري المأمول.

أدومُهُ وإن قلَّ

د.خير الله طالب

تمنّى عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ في آخر عمره أن لو قبِل وصية النبي ﷺ له بالاكتفاء بالعمل القليل الذي يستطيع المداومة عليه في شيخوخته. ومرّة جاءت امرأة تذكر لعائشة أنها تصلي ولا تنام الليل، فقال لها ﷺ: «عليكم مِنَ العَمل ما تُطيقُون، فواللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتى تَمَلُّوا». وقال ﷺ: «... واعلَموا أن أَحَبَّ العَملِ إلى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِن قَلَّ»[1].

كان ﷺ يلفت نظرهم إلى ما هو أهم من مجرد الفعل، وهو المداومة عليه، الأمر الذي يحول دونه تحمل الإنسان لما يفوق طاقته ووقته، فينقطع، وهي الظاهرة الشائعة اليوم مع تضخم الطموحات وفرط البرامج.

ينسى المندفعون نحو الكثرة أن طريقها يبدأ بالمداومة على القليل، وأن السيل اجتماع النقط، وأن المنجزات الضخمة حصيلة شقاء سنين، فظن الواهمون أنها طفرة.

ويغيب عن الزاهدين في القليل أنه كثير بالمداومة، وأن الشجرة إنما تنبت وتثبت على مرّ الأيام، وأن الأجسام والأبنية تبدو واقفة لمن يرقب نموها وبنيانها يوميًا، كهيئة الثابتين في سيرهم الذين جعلوا عنايتهم الإنجاز اليومي وإن قل، دون استعجال يورث الحرمان، أو حساب لومة اللائمين.

ليس من المعقول أن نتوقع مولودًا بعد شهر من الزواج، ومجنون من يتمنى تزويج مولوده بعد سنة، إلا أننا توهمنا هدّ الطغيان وإعادة بنيان الأوطان في عام واحد أو أقل، ورأينا طلابًا توقعوا الوقوف في مصافّ العلماء ولمّا تشب شعورهم في طريق العلم، وروّاد أعمال قطعوا وظائفهم قبل قطف ثمار مشروعاتهم، فلا دخلاً أبقوا ولا ريادةً حصّلوا. وما أقل الانتفاع بقصة الأرنب والسلحفاة.

التزام الإنسان وثبات سيره وانضباط مسيرته أساسٌ في إنتاجيته، وهذا ما لا يريده الشيطان فيوهمه بأن الاستعجال وإحراق المراحل سبيل مختصرة لتحقيق أمانيه، وأن قدراته لا محدودة، فيعِده ويمنّيه الغرور وأحلام الخيال.

ليس الهدف تثبيط الهمم، وإنما هي دعوة للتمرين على الإنجاز بخطى قليلة ثابتة، تجتمع وتتراكم مع الوقت حتى تبدو عظيمة خارقة، ولا هي دعوة إلى الترك والتوقف، بل تحذير من الانقطاع قبل أن يقع، برسم الأهداف في ضوء الإمكانات والواجبات الشخصية الحياتية الطبيعية.. ثم تبقى البركة في سويعات دائمة هي مضمار التسابق.

وقد تحدث المجرِّبون متقدمين ومتأخرين، من المؤلفين والباحثين والدارسين عن إنجازهم الكثير بالمداومة على القليل، من كتابة سطر أو سطرين، أو قراءة صفحة أو صفحتين، لا يتركون ذلك يومًا واحدًا.

من يرضى بالقليل الدائم سيكون عمله (دِيمة) كمطر مستمرٍّ مع السكون بلا رعد ولا برق، يستمرُّ مهما انخفضت قدراته، فـ «ما ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى كانَ أَكْثَرُ صَلاتِهِ قاعِدًا إلا المَكتُوبَةَ، وكانَ أَحَبُّ العَملِ إليهِ ما داوَمَ عليهِ العَبْدُ، وإن كانَ يَسِيرًا»[2].

بالمداومة يسهُل العمل، وبالمداومة على القليل يتحقّق التوازن، ثم يستقر دولاب الحياة بمجموع العادات التي بناها صاحبها بمداومته اليومية، فتروّضت النفس على الاستمرارية، وتشكلت الشخصية، وحاز المداوم ما لم يحُز غيره (إذا مَرِضَ العَبدُ أو سافَرَ، كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا)[3]، فمن داوم على القليل أدام الله أجره عند عجزه، فصار قليله أكثر من الكثير.

غاية العبودية يبلغها العبد بما آتاه الله من قدرة وطاقة وبيئة ومُكْنة، وليس بما آتى الآخرين، فالقياس عليهم قياس مع الفارق.

وقد لا تجد لمداومة العاملين للإسلام اليوم أسهل ولا أسرع من لزوم ثغر متخصص دقيق.

النجاح خطوتان: الأولى أن تبدأ، والثانية أن تستمر. فمن استدام قنع بالقليل، ومن استكثر من أول الطريق تحسّر. وكفى المداومين فخرًا محبة الله تعالى.

(١) قصة عبدالله بن عمرو بن العاص أخرجها البخاري (٥٠٥٢)، وقصة المرأة أخرجها مسلم (٧٨٥)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «واعْلَموا أَنَّ أَحَبَّ العَملِ إلى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِن قَلَّ» أخرجه مسلم (٢٨١٨).

(٢) وصفت عائشة عمله صلى الله عليه وسلم بأنه كان ديمة، أخرجه البخاري (١٩٨٧)، والحديث الآخر من قول أم سلمة أخرجه أحمد (٢٦٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

أكاديمية
تأصيل الوعي

تقدم

أكاديمية تأصيل الوعي

باقة من الدبلومات العلمية التأصيلية:

» فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك
» فقه مقاصد الشريعة
» النظام السياسي الإسلامي

وقريباً دبلوم الأخلاق والتزكية والسلوك

www.islamicsham.org

islamicsham2 islamicsham